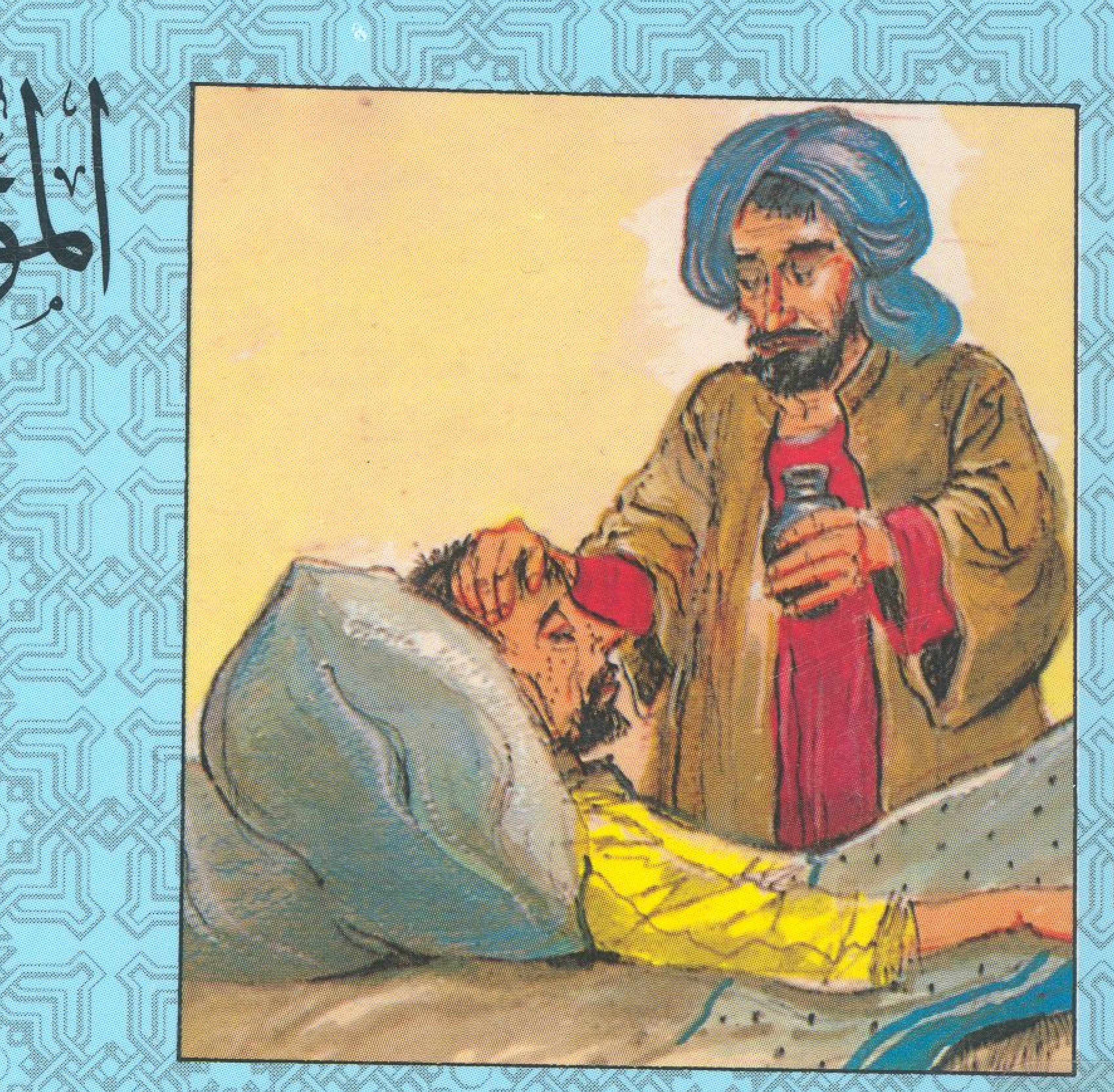
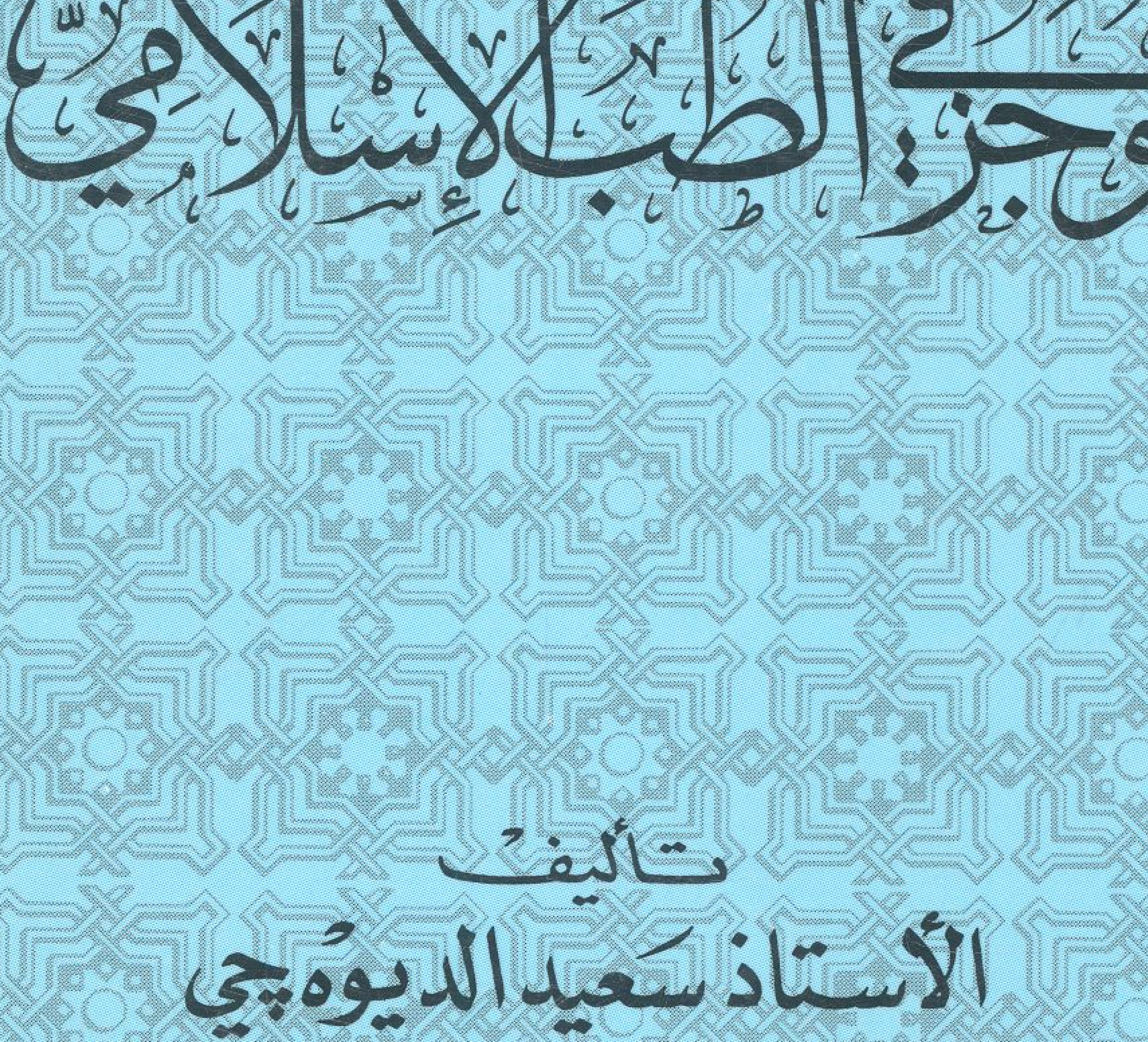
مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
إدارة التأليف والترجمة والنشر



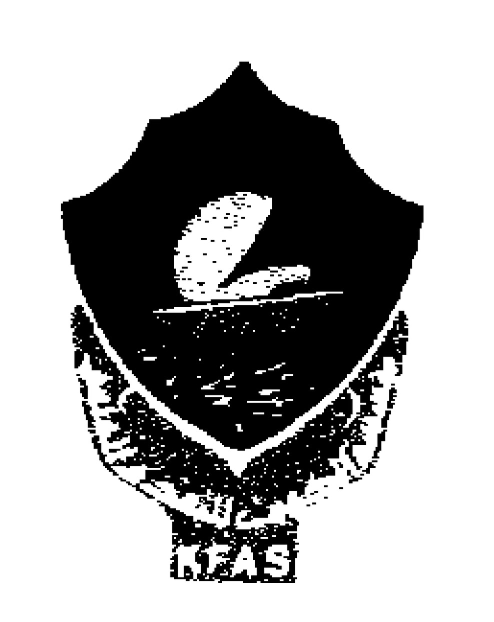




الموجز في الطب الإسلامي

تأليف
الأستاذ سعيد الديوه چي

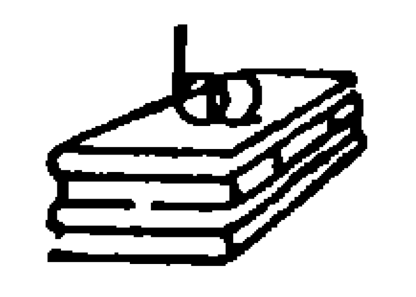
سلسلة الكتب المتخصصة
الطبعة الأولى ١٩٨٩
الكويت



مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
إدارة التأليف والترجمة والنشر

الموجز في الطب الإسلامي

تأليف
الأستاذ سعيد الديوه جي

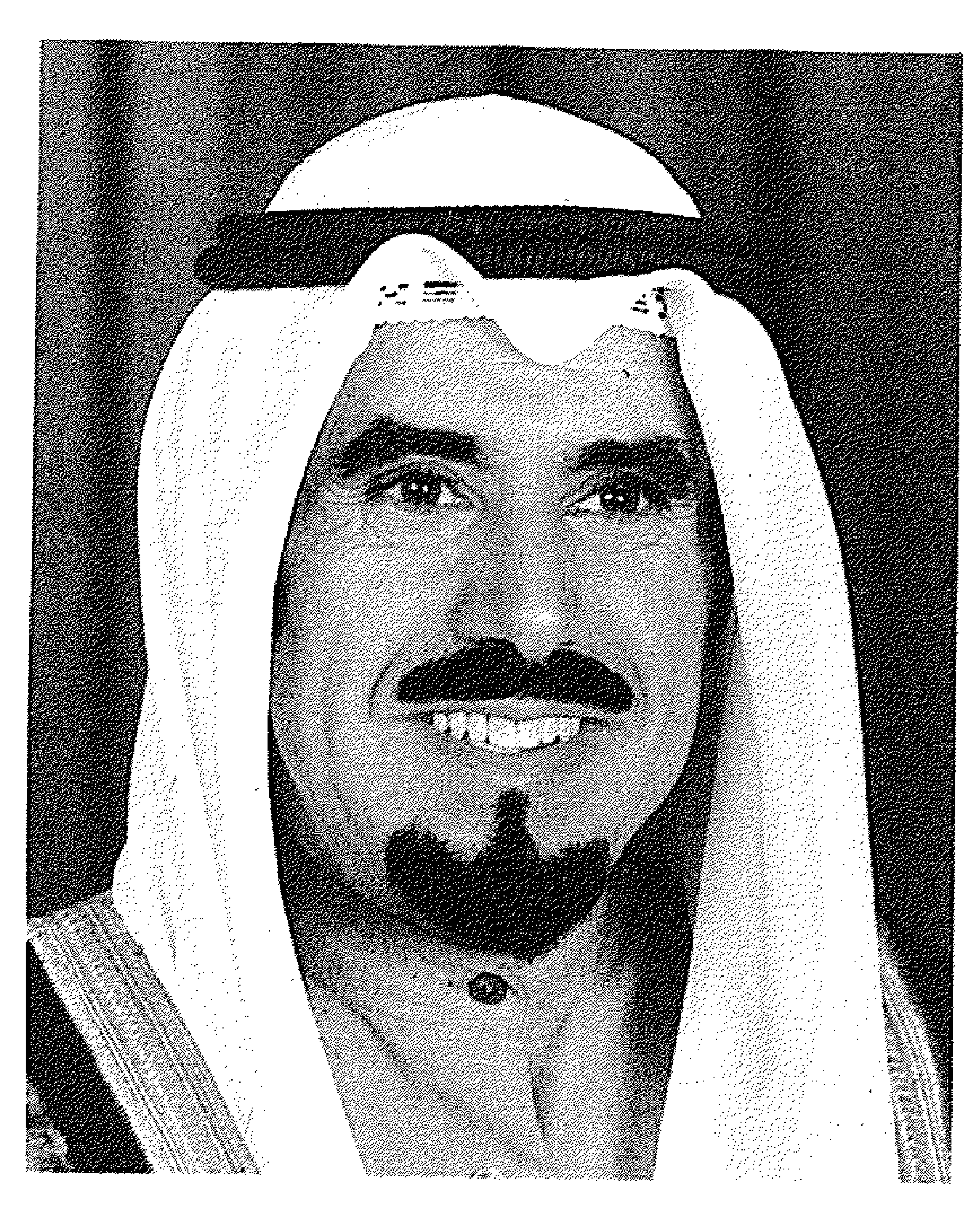


سلسلة الكتب المتخصصة
الطبعة الأولى ١٩٨٩
الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم

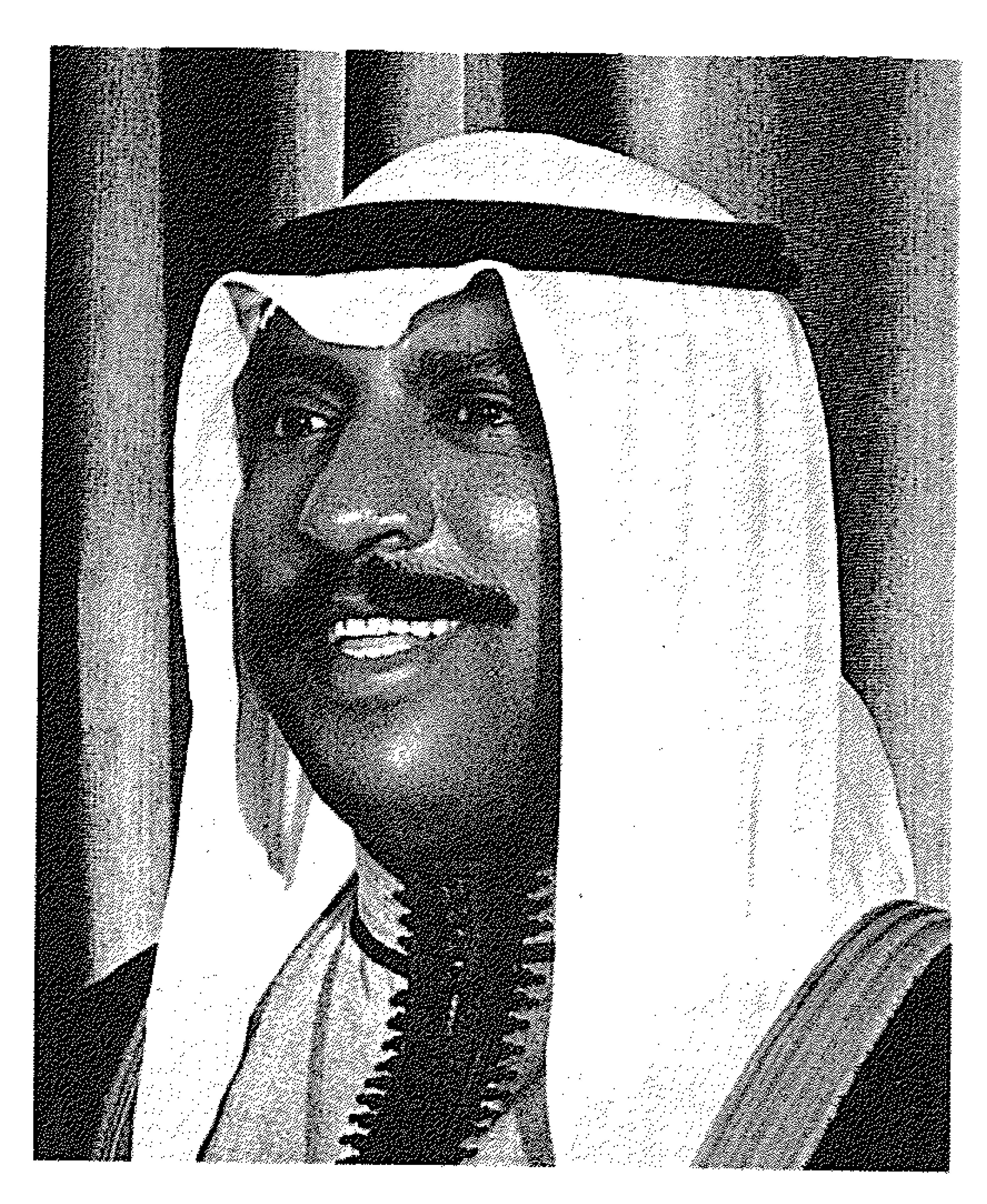
﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الحجر الآية ١٩

صدق الله العظيم



صاحب السّمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصّباح
أمير دولة الكويت





سموّ الشيخ سعد العبدالله السالم الصّباح

وليّ العهد رئيس مجلس الوزراء



المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آلـه وأصحابـه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

بحثت مـا كان عليـه الطب عنـد المسلمين من التفـوق، وما قـدموه لـلإنسـانيـة من خدمات جليلة، يوم كان الغـرب يتخبط في دياجـير الظلام، ويعتقـد أن الأمراض من مسّ الشياطين.

ذكرت ما كانوا عليه في دقة البحث، والسعي وراء الحقيقة بطرق علميـة دقيقة، ومـا أبدعوه في تنظيم المستشفيات، ومعالجة المريض، والسهر عـلى راحته، وتخفيف آلامـه، وما أعـدوه من الملاجىء الخـيرية لكـل أفـراد الشعب، لا فـرق بـين الغني والفقـير، والحـاضر والبادي، والمسافر والمنقطع.

وهم بأبحاثهم لم يكونوا نقلة عن غـيرهم، أعادوا مـا وقفوا عليـه، فهم بعد أن نقلوا هـذبوا ونقحـوا وجربـوا، وطبقوا العلم عـلى العمل، نبهـوا على الخـطأ، وقـرروا مـا ثبت عندهم، وأبدعوا بما أضافوه من قواعد وآراء ونـظريات، لم يـزل يؤخذ بهـا إلى اليوم، وهي تطلعنا على سعيهم في طلب الحقيقة بـالبحث العلمي الدقيق، والتـطبيق بالعمـل، فكانـوا أساتذة العالم.

ومن الـبر أن نجلو آثارهم، وننشر علومهم ومعـارفهم، ليقف العالم عـلى مـالهم من فضـل في الإبداع، فهم الـذين قرروا الحجـر الصحي، وأمموا الـطب، وجعلوه من فروض الكفـاية في المجتمـع، ونظمـوا المستشفيات، وشيـدوا معـاهـد الـرعـايـة للعجـزة والأيتـام والمقعدين، كان هذا بفضل الـرسول الأعـظم سيدنـا محمد ﷺ، الـذي هداهم إلى مـا فيه سعادة الدارين، فساروا على هديه، وكانوا ﴿خـير أمة أخـرجت للناس﴾ بعلمهم وعملهم وأخلاقهم.

وقد آثرت أن يكون مركزا، سهل التناول لمن يريـد أن يقف على مـا أبدعـه أجدادنـا ـ رحمهم الله تعالى ـ في هذا العلم الجليـل، فإن كنت مـوفقا، فـالحمد لله تعـالى، وهو من فضـل الله عليَّ، وإن قصرت، فهـو على حـد جهدي وعلمي، وفـوق كل ذي علم عليم، والحمدلله أولا وآخرا.

المؤلف

الفصل الأول
الطب في الدور الجاهلي

العرب قبل الإسلام

العرب من الأمم العريقة في العلوم والمعارف والعمران، قام لهم دول في جزيرتهم، وفي الهلال الخصيب، كان لها شأن في الحضارة، وآثارهم تنطق بما كانوا عليه.

قام فيهم أطباء وحكماء، وقفنا على أخبار بعضهم، عانوا الطب، وطبوا لقومهم، منذ أقدم العصور، يؤيد معرفتهم بالطب والمعالجة، ما نجده من ألفاظ عديدة لأسماء أعضاء جسم الإنسان - الظاهرة منها والمدفونة - وأوصافها، وأجزائها التي تتفرع منها، من عظام، وأعصاب، ولحم، وشرايين، وأوردة، ودم . . . إلخ.

وقد جمع العلماء منها ما وقفوا عليه من أخبار في كتب سموها «خلق الإنسان»[1]، ونجد أيضا مثل هذا في معاجم اللغة، وفي أمثالهم وأخبارهم وأشعارهم.

وفي اللغة العربية أسماء عديدة للأمراض التي تنتاب الإنسان، مما يميز بعضها عن بعض، وأسماء العقاقير التي كانوا يعالجون بها المرضى، سواء كانت متوفرة في بلادهم أو يستوردونها، وقد جمع علماء اللغة فيما وقفوا عليه من هذه الأعشاب والعقاقير كتبا تبحث عنها، وطرق الاستفادة منها[2].

فالطب من العلوم التي عنوا بها منذ أقدم عصورهم، ووقفوا على أنواع الأمراض، وما كانوا يعالجون به.

يقول القفطي: إنّ الأمم التي عنيت بالعلوم هي «الفرس والهنود والكلدانيون واليونانيون» وأهل مصر، والعرب، والعبرانيون، كل هذه الأمم عنيت بالعلوم وباستخراجها»[3].

---

(١) جمع اللغويون ما وقفوا عليه من أعضاء جسم الإنسان، في كتب سموها «خلق الإنسان»، وبعضهم سماها «أعضاء الإنسان». ذكر ابن النديم عدداً منها، وأنظر أيضا: مجلة «المورد»: ١٠: ١٠٦ - ١٥٦، ١٢: ٢: ٨١ - ١٠٨، مجلة «لغة العرب»: ٩: ١١٠ - ١٢٦، مجلة «المجمع العلمي العراقي».

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣: ٣٣٩ - ٣٤٣ - جمع عدداً منها.

(٣) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢١.

والقرآن الكريم نزل بلغتهم، وخاطبهم بما فهموه وتدبروه، ووجههم إلى أن يفكروا بدقة خلقهم ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[٤] وما في أجسادهم في تقويم دقيق ﴿**وخلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾[٥].

وأن يفكروا في خلق الجنين وتطوره إلى أن يتم تكوينه ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾[٦].

ولولا ما كانوا عليه من العلم والمعرفة بما خاطبهم، لما أدركته عقولهم، وفهموه حق الفهم، فأقبلوا على هذا الدين الحنيف.

والعرب قبل الإسلام كانوا قسمين:

١ ـ الحضر: وهم سكان المدن، ولهم دول وحضارة، وصلات مع الأمم في التجارة والعلوم والمعرفة، وقام فيهم أطباء وحكماء، درسوا في مدارس الأمم المجاورة لهم، وعانوا الطب في بلادهم، وفي البلاد التي درسوا فيها، ومنهم:

ـ الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي: طبيب العرب في وقته، رحل إلى بلاد فارس، ودرس الطب في «بيمارستان جنديسابور» وجاد في طبه، وعالج في بلاد فارس، وقدموه على أطبائهم، فكان أجلاؤهم يعولون عليه، وجمع ثروة واسعة، ثم عاد إلى بلاده، واشتهر بين العرب، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، وكان عليه الصلاة والسلام، يأمر من به علة أن يأتيه، ومن ذلك ما أمر به سعد بن أبي وقاص، لما عاده في مرضه. وللحارث من الكتب: كتاب المحاورة بينه وبين كسرى في الطب[٧].

---

(٤) سورة الذاريات: آية: ٢١.

(٥) سورة التين: آية: ٥.

(٦) سورة المؤمنون: الآيات: ١٢ ـ ١٤.

(٧) طبقات الأطباء والحكماء: ٥٤ ـ ٥٦، أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١١٢ ـ ١١٣، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١: ١١٠ ـ ١١٣، تاريخ مختصر الدول: ١٥٦، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣: ٣٢٨ ـ ٣٣٥.

ـ عبدالملك بن أبجر الكناني: من أسرة كانت تعاني الطب، رحل إلى الإسكندرية بمصر، ودرس في مدرستها، وتفوق في طبه، ثم عهد إليه التدريس في هذه المدرسة [٨].

٢ ـ البدو: لم تنقطع صلاتهم مع قبائلهم في الجزيرة والهلال الخصيب وأكثرهم من القبائل القحطانية، التي نزحت من اليمن بعد حادثة سيل العرم، ـ واليمن من البلاد العريقة في الحضارة والعلوم ـ ومنها الطب ـ فحملت القبائل النازحة ما تعلمته من الطب والمعالجة، وعلى مر السنين مزج بعضهم الطب بالكهانة والعرافة، وكانت مصادر الطب عندهم: ما حملوه معهم، وما اقتبسوه من أهل الحضر الذين يتصلون معهم، وما وقفوا عليه بطريق المصادفة. وما جربه عقلاؤهم، ووقفوا على نفعه، خاصة ما يجدونه في بلادهم من أعشاب وعقاقير وغيرها. فكان الكهان هم الأطباء عندهم، وقد يسمون الطبيب كاهناً أو عرافاً.

ونجد في بعض القبائل عرافاً أو أكثر يعاني الطب عندهم، وربما قصده أناس من القبائل الأخرى، إذا ما أنسوا بعلاجه، واشتهر في بعض القبائل عرافون منهم:

ـ عراف اليمامة الذي نوهوا عنه بشعرهم، ومن ذلك قول بعضهم: [٩]

فقلت لعراف اليمامة داوني ... فإنك إن داويتني لطبيب

وقال غيره في عرافي اليمامة ونجد: [١٠]

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد إن هما شفياني

فقالا: شفاك الله، واللهِ مالنا ... بما حملت منك الضلوع يدانِ

وبعضهم أدرك الإسلام، وعالج بما أقره عليه الرسول ﷺ من تعليمات قيمة في المعالجة، وأن يترك الكهانة، منهم:

ـ الشمردل بن قباب الكعبي النجراني: وفد مع قومه إلى النبي ﷺ ولما مثل أمامه قال «يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إني كنت كاهن قومي في الجاهلية، وإني كنت أتطبب، فما يحل لي؟ قال له عليه الصلاة والسلام: «فصد العرق، ومجسة الطعنة، إن إضطررت،

---

(٨) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١: ١١٦، طبقات الأطباء والحكماء: ٥٩ ـ ٦٠.

(٩)، (١٠) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣: ٣٠٦.

ولا تجعل من دوائك شرا ما، وعليك بالسنا، ولا تداو أحدا حتى تعرف داءه». فقبل ركبتيه، وقال «والذي بعثك بالحق أنت أعلم مني بالطب»(١١).

ـ ضماد بن ثعلبة الأزدي، من أزد شنوءة: قدم على الرسول ﷺ وشهد شهادة الحق، وبايعه على نفسه وقومه(١٢).

ـ ابن أبي رمثة التميمي: كان جراحا وأدرك الإسلام، ووفد مع أبيه إلى الرسول ﷺ، وروى عن رسول الله عليه السلام (١٣).

ـ ابن حذيم، من تيم الرباب: مما وقفنا عليه من أخباره أنه كان عالما بالطب والمعالجة، وبعضهم كان يقدمه على الحارث بن كلدة، ويضربون المثل بطبه فيقولون: أطب من ابن حذيم (١٤).

يقول فيه أوس بن حجر:

فهل لكم فيها إليَّ فإنني أطب بما أعيا النطاسي حذيما

(١١) ، (١٢) البيمارستانات في الإسلام: ٨.

(١٣) طبقات الأطباء والحكماء: ٥٧ ـ ٥٨، الطب النبوي: ١٠٩، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١: ١١٦.

(١٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣: ٣٣٧ ـ ٣٣٩.

الفصــل الثــاني
الطــب فــي صــدر الإســـلام

١ ــ الأمر بالتداوي

كانت رسالة النبي ﷺ رحمة للعالمين، دعاهم إلى ما فيه سعادة الدارين، جمع الناس تحت رايته، وألف منهم أمة واحدة، تكتب بلغة واحدة ـ اللغة العربية ـ وتخدم تراثاً واحدا، هو تراث العرب والإسلام، فكانت دعوته حدثا قويا في الحضارة الإنسانية: دين ودولة وتشريع، وتحرير أفكار وعمل مثمر، يكفل سعادة الدنيا والآخرة.

جعل «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1] فوجه القوم إلى الاستزادة من العلوم والمعارف النافعة، وأن يطلبوها في مشارق الأرض ومغاربها «اطلبوا العلم ولو في الصين»[2].

أمرهم بتعلم اللغات، فتعلم زيد بن ثابت الأنصاري الفارسية والرومية والقبطية والحبشية، فكان يكتب للنبي ﷺ ويترجم له[3]، وتعلم عبدالله بن عمرو بن العاص اللغة السريانية[4].

فالحكمة ضالة المؤمن، والطب في مقدمة العلوم التي وجههم إليها، حرم الكهانة والدجل وجعلهما من الكفر، وأمر بمراجعة الأطباء والاستفادة من علمهم وتجاربهم.

عن أسامة بن شريك قال: «كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا: أنتداوى؟ قال: نعم، عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد، وهو الهرم»[5].

وقال ﷺ: «لكل داء دواء فإن أصاب الدواء الداء برىء بإذن الله»[6].

وإذا عاد مريضاً أمره أن يأتي الأطباء. قال سعد بن أبي وقاص: مرضت فأتاني رسول

---

(١) مختصر المقاصد الحسنة ـ للزرقاني: ٢٣٤.

(٢) الأخلاق والواجبات: ٥٤.

(٣) التنبيه والإشراف ـ للمسعودي: ٢٤٦.

(٤) التربية والتعليم في الإسلام: ٧.

(٥) الاكتساب في الرزق المستطاب، محمد بن الحسن الشيباني: ٢٥.

(٦) الطب النبوي، للذهبي: ١٠١.

الله ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثديي، حتى وجدت بردها على فؤادي، وقال: «إنك رجل مفؤود، فأتِ الحارث بن كلدة من ثقيف، فإنه رجل يتطبب»[7].

وبعث ﷺ إلى «أبي بن كعب» طبيبا فقطع منه عرقا ثم كواه[8].

ودخل عليه الصلاة والسلام على مريض يعوده، فقال: «أرسلوا إلى طبيب، فقال له قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم»[9].

وعن زيد بن أسلم أن رجلا أصابه جرح، فاحتقن الدم، وأن رسول الله ﷺ دعا برجلين من بني أنمار، فقال: أيكما أطب؟ فقال أحدهما: أنا يا رسول الله، فقال عليه السلام: دونك إذن، فقال رجل: وفي الطب خير؟ قال: الذي أنزل الداء أنزل الدواء[10].

وكان عليه الصلاة والسلام إذا أصابه مرض يأمر باستدعاء طبيب لمعالجته.

وتقول أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما كثرت أسقام رسول الله، وكان يقدم عليه أطباء العرب والعجم فيصفون له فنعالجه[11].

وله وصايا كثيرة بما يكون عليه الطبيب من علم وخلق في معالجة المرضى والشفقة عليهم والرفق بهم... الخ[12].

---

(٧) طبقات الأطباء والحكماء: ٥٤، الطب النبوي: ١١١.

(٨) الطب النبوي: ١٠٤، طبقات الأطباء والحكماء: ٥٨.

(٩) الطب النبوي: ١٠٥.

(١٠) طبقات الأطباء والحكماء: ٥٤.

(١١) الطب النبوي: ١٠٣.

(١٢) الأدب النبوي: ١٢٧، الطب النبوي: ١٠٩.

٢ ـ الطب السلبي

والطب: استدامة الصحة إن وجدها، وطلبها إن فقدها.

وطلب الصحة يكون بمراجعة الأطباء، والاستفادة من علمهم وتجاربهم.

واستدامة الصحة تكون بالعناية في الجسم، وتطبيق القواعد الصحية في العمل والطعام، والتوقي مما يضره، وهذا هو الطب السلبي الذي أرشدنا إليه ﷺ.

فالرفق بالجسم وعدم إرهاقه بالعمل الشاق، مما أكد عليه ﷺ، فعلى المسلم أن يقوم بالعبادات والأعمال التي يقوى عليها جسده، ولا ترهقه، فإذا ما ألم به مرض أو ضعف أو سأم، فعليه أن يخفف عن نفسه ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾(١٣).

فالإسلام خفف في التكاليف عن المريض والعاجز والمسافر، ورسول الله ﷺ يقول: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١٤)، فإرهاق الجسم في العمل والعبادات، والقيام بما لا يتحمله معصية، «نفسك مطيتك فارفق بها»(١٥).

وعلى المسلم أن يلتزم بالرُّخَص ولا يحيد عنها، قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه»(١٦)، فباب التيسير واسع ﴿**ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾(١٧)، «يسروا ولا تعسروا».

وكان عليه الصلاة والسلام، إذا ما علم بشخص ترك الدنيا وما فيها من طيبات، وأجهد نفسه في الانقطاع والعبادات، نهاه عن هٰذا، وأمره بالاعتدال في عمله وعبادته.

ومن ذلك: جاءه الباهلي، وقال: يا رسول الله أنا الباهلي جئتك عام الأول، قال له عليه السلام: «فما غيّرك؟ قال الباهلي ما أكلت طعاما مذ فارقتك إلا بليل. ـ أي يصوم النهار ـ فقال له رسول الله ﷺ: «عذبت نفسك»(١٨).

---

(١٣) سورة البقرة: ٢٨٦.

(١٤) متن الأربعين النووية: ١٨.

(١٥) الأخلاق والواجبات: ٤١.

(١٦) الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الكبير، للسيوطي: ١ : ٣٥٥.

(١٧) سورة الحج: ٧٨.

(١٨) مفتاح السنة: ٩٣، الإصابة في تمييز الصحابة: ٤ : ١١٣ ـ ١١٤.

وقال عليه الصلاة والسلام لعثمان بن مظعون: «فأنا أنام، وأصلي وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، ياعثمان: إن لعينك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، فصم وافطر وصل ونم»[١٩].

وكان عليه الصلاة والسلام يطبق الرخص أمام الصحابة، فإذا ما سافر في رمضان أفطر، يأكل ويشرب أمامهم، ليعلمهم أن باب الرخصة مفتوح لمن يصعب عليه الصوم.

وعلى المسلم أن ينشط في عمله، والنشاط يدفع السأم عن الإنسان، وأن يستبشر في الحياة، ينبذ الأوهام والوساوس التي تميت قلبه وتقعده عن العمل، فالهم والغم يحدّان من نشاطه، ويثبطان أعماله، ويهدمان صحته، فكان عليه السلام يستعيذ من الهم والغم.

حرم الانقطاع عن الناس، فلا رهبانية في الإسلام، ورهبانية أمتي الجهاد، والجهاد الأكبر مزاولة الأعمال مع الناس في حدود الشرع، ذلك لأن الإنسان خلق ليعمل لدنياه وآخرته، وهذا لا يتم إلا بالعمل المستطاع.

٣ ـ الغذاء

والغذاء عامل أساسي في نمو الجسم وحفظ الصحة، ووقايته وشفائه، ودوام الحياة الفعالة لا تكون إلا بحسن الغذاء للجسم، ﴿**وسخر لكم مافي الأرض جميعا**﴾[٢٠]، واستغلال ما سخر لنا ـ جلّ وعلا ـ يتطلب جسما قويا، وعقلا سليما، وفعالية مستمرة، وفكرا مدبرا لما يقوم به من الأعمال التي يعانيها.

والطعام المعتدل يساعد الجسم على الاستغلال والاستفادة مما سخره الله لنا، وتدبير الحياة لما فيه سعادة الدارين.

فالسعي لكسب الرزق من الإيمان: فالعبادة عشرة أقسام، تسعة منها في طلب الحلال.

---

(١٩) تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك، للسيوطي: ٣ : ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢٠) سورة الحج: ٧٨.

والإنسان العاقل يوازن بين ما يحتاجه من طعام وشراب، وما يعانيه من أعمال، وإلا ساءت صحته وأثرت في عمله. فالمسلم يتجنب ما حرم الله، ويأكل من طيبات ما رزقه **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾**[٢١].
﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله﴾[٢٢].

يتمتع بالطيبات في الأكل والشرب والزينة **﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**[٢٣] ويتجنب الخبائث التي تفتك بجسده.

يعتدل في تناول طعامه وشرابه **﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾**[٢٤].

فإذا قصر في طعامه، أو أسرف في تناوله، أثر في نشاطه، وحد من عمله.

قال عليه الصلاة والسلام: «ما ملأ جوف ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم آكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[٢٥].

فالإنسان يأكل ليعيش، لا يعيش ليأكل، فالجوع يحد من صحته، ويقعده عن العمل، والبردة أصل كل داء، والاعتدال هو الذي يحفظ الجسم وينميه وينشطه للعمل المنتج.

ويقول الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: «إياكم والبطنة، فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد، فإنه أصلح للجسد، وأبعد عن السرف، وأن الله يبغض الحبر السمين»[٢٦].

---

(٢١) سورة البقرة: ١٧٢.

(٢٢) سورة البقرة: ١٧٣.

(٢٣) سورة الأعراف: ٣٢.

(٢٤) سورة الأعراف: ٢١.

(٢٥) الاكتساب في الرزق المستطاب: ٤٤.

(٢٦) الطب النبوي: ١١، محاضرات الأدباء ـ للراغب الأصفهاني: ١ : ٣٠١.

٤ ـ النظافة

والنظافة عامل أساسي في حفظ صحة الجسد: ومن قواعد الإسلام: مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والعبادات لا تتم إلا بنظافة الجسم والثياب والمرفق: «بني الإسلام على النظافة»[٢٧]، وللنظافة تأثير في حفظ الصحة، وفي مظهر الإنسان وكرامته في محيطه ومجتمعه «أحسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس»[٢٨].

ينظف جسده فيستحم في كل أسبوع مرة، ويتخلص من الأوساخ والأدران «طهروا هٰذه الأجساد طهركم الله»[٢٩]، ويعنى بنظافة أسنانه، بأن يستعمل السواك «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»[٣٠].

يُعنى بنظافة شعره، ينظفه من الأوساخ ويدهنه ويمشطه «إذا اتخذت شعراً فأكرمه».

والرسول ﷺ كان يغسل شعره بماء السدر، ويكثر دهنه، ويسرح لحيته، ولا يفارقه المشط والسواك والمكحلة.

يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل، وضع له سواكه وطهوره ومشطه، فإذا أهبَّه الله عز وجل من الليل استاك وتوضأ وامتشط[٣١].

إن أبا قتادة الأنصاري، قال لرسول الله ﷺ: «إن لي جمة أفأرجلها؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم وأكرمها»، فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين[٣٢].

كان رسول الله ﷺ في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ بيده أن أخرج، كأنه يعني إصلاح شعره ولحيته، ففعل الرجل، ثم رجع، فقال له رسول الله ﷺ: «أليس خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان»[٣٣].

---

(٢٧) - (٣٠): ٤٧، ٤٦، ٤٧، ٤٨.

(٣١) أخلاق النبي ﷺ: ١٨٤.

(٣٢) تنوير الحوالك: ٣ : ١٢٤ ـ ١٢٥، العقد الفريد لابن عبد ربه: ٦ : ٢٢٦.

(٣٣) تنوير الحوالك: ٣ : ١٢٥، العقد الفريد: ٦ : ٢٢٧.

ولم تقتصر النظافة على الجسم والثياب والمرافق بل عليه أن يعنى بنظافة شارعه ومدينته ومحل عمله، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وإزالة كل ما يؤذي المجتمع من نفايات وأوساخ وقذرات حيوانات مؤذية، تكون مأوى الجراثيم، ونقل الأمراض وغيرها، كل هٰذا من واجبات المسلم أن يتعاون على إزالتها.

٥ ــ التوقي من الأمراض

والتوقي من الأمراض المعدية، والأوبئة الفتاكة واجب على كل مسلم، حفظاً(٣٤) لصحته وصحة المجتمع الذي يعيش فيه. أمرنا عليه السلام أن نتجنب ذوي الأمراض المعدية، فقال «لا توردوا المصح على الممرض».

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ من مثل هٰذه الأمراض ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من البرص والجذام وسيّىء الأسقام».

وحذر القوم من مخالطة المجذومين فقال: «فر من المجذوم كما تفر من الأسد»، وإذا اضطر الإنسان إلى مكالمة من به جذام، فليكن على بعد منه. قال ﷺ: «كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح».

ولما قدم وفد ثقيف لمبايعته، كان فيهم رجل مجذوم، أرسل إليه عليه السلام: «ارجع فقد بايعنا عنك».

وبينما كان الفاروق رضي الله عنه يطوف بالبيت رأى امرأة مجذومة فقال لها: «يا أمة الله لا تؤذي الناس، لو جلست في بيتك»، فجلست في بيتها.

(٣٤) انظر عن التوقي من الأمراض، والحجر الصحي: شرح الكرماني لصحيح البخاري: ٢١ : ١٤ ـ ١٧، ٢٤ : ٨٦، تنوير الحوالك: ١ : ٣٧١، ٣ : ٨٩ ـ ٩١، جواهر البخاري: ٤٦٦، إحياء علوم الدين: ٤ : ٢٤٨، الطب النبوي لابن قيم الجوزية: ٣٤ ـ ٣٥، الطب النبوي للذهبي: ١٣٠ ـ ١٣٢، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ٢٦٢ ـ ٢٦٤، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي: ٦٦ ـ ٦٧، دور العلاج والرعاية في الإسلام: ٢٥.

٦ ـ الحجر الصحي

ومما أمرنا به عليه الصلاة والسلام، حفظا لصحة المجتمع، «الحجر الصحي» على الأماكن التي تنتشر فيها الأوبئة والطواعين.

فالطاعون من الأمراض الفتاكة، حذر المسلمين من خطره، ومما يؤدي إلى موت أنفس كثيرة، كما أمر أهل البلد التي يقع فيها الطاعون، ألاّ يخرجوا من بلدهم، حذراً من أن يتفشّى المرض في البلاد التي يخرجون إليها.

قال عليه الصلاة والسلام: «إذا سمعتم به، أي الطاعون، بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها فراراً».

ولما خرج الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام، حتى إذا كان بزاغ(*) لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وأصحابه، فأخبروه: أن الوباء قد وقع بأهل الشام. قال ابن عباس رضي الله عنه، فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين. فدعاهم فاستشارهم وأخبرهم: أن الوباء قد وقع بالشام. فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم: معك بقية الناس، وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء.

فقال: ارتفعوا عني. ثم قال ادع لي الأنصار، فدعوتهم، فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش، من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هٰذا الوباء.

فتوقف الفاروق عن الدخول إلى الشام، خشية أن يصاب هو ومن معه بالطاعون. فلما أصبحوا جاء عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه ـ وكان غائباً في بعض حاجته ـ فسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ذلك. فقال: «عندي فيه يا أمير المؤمنين شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم بالوباء في أرض، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع في أرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منه فراراً».

(*) آخر عمل من أعمال الحجاز وأول عمل من أعمال الشام (معجم البلدان: ٥ : ٧٠).

فتوقف الفاروق عن الدخول إلى الشام، ونادى في النـاس: «إني مصبح عـلى «ظهر» فاصبحوا. قال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفراراً من قدر الله؟ فقال له عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كـان لك إبـل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة، رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة، رعيتها بقدر الله[*].

فالحجر الصحي مما حث عليه الرسول ﷺ، حفظاً لصحة المجتمع، وعلى الإمـام أن يحجر على أهل المواقع التي ينتشر بها الطاعون، فيمنعهم من الخروج، وأن يكفيهم مؤونتهم من الطعام وما يحتاجونه، ويمنع الناس من الدخول إلى المـدن المصابـة ـ فيخلص الناس من العدوىٰ.

فقواعد حفظ الصحة ـ الطب السلبي ـ مما أكد عليه النبي ﷺ.

قال الدكتور غوستاف لوبون: وهذا الطب السلبي، هو آخـر ما اعتمـد عليه أطبـاء اليوم، ولا ريب عندي أن أطباء العرب في القرن العاشر للميـلاد، لم يفقدوا من مـرضاهم أكثر مما يفقده أطباؤنا الحاليون.

٧ ــ تأميم الطب

طلب العلم فريضة على كل مسلم. والفرض نوعان: فرض عين، وفرض كفاية.

ففرض العين: ما يتعين على كل أحد إقامتـه، نحو أركـان الدين، ولا يجـوز له تـرك هٰذا الفرض، لتصح عبادته.

وفرض الكفاية: ما إذا قـام به بعضهم، سقط عن البـاقين، لحصـول المقصود، وإن اجتمع الناس على تركه، كانوا مشتركين في المأثم[٣٥].

(*) كان هذا طاعون عمواس: وهي ضيعة على ستة أميال من الرملة، عن طريق بيت المقدس، ابتدأ بها الطاعون سنة ١٨ هـ، ثم فشا في الشام، ومات فيه: أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، والفضـل بن العباس، وغيرهم، ومات فيه خمسة وعشرون ألفا من المسلمين.

(٣٥) انـظر عن هـذا: الاكتسـاب في الـرزق المستـطاب: ٤ ـ ٤٢، إحيـاء علوم الـدين: ١ : ١٤، مختصر منهـاج القاصدين: ٧ ـ ٩.

فالعلوم وأصول الصناعات المختلفة، التي عليها قوام المجتمع، لتأمين راحته، وتدبير عيشه، وحفظ صحته، وتعمير بلده، والدفاع عن حقه، كلها من فروض الكفاية، يجب أن يكون في الأمة من يحسنها، ويعانيها، وينشرها بين الناس ـ ومنها الطب ـ.

فالطب: من العلوم التي عني بها المسلمون، لتستقيم لهم أمور دينهم ودنياهم، وعلى الأمة أن تُعِدّ من أبنائها من يعاني هٰذه الصناعة.

كثير من الناس لا تتهيأ لهم الفرص على تعلم العلوم والصناعات، ومنها الطب، وعلى الأمة أن تهيىء لهم الفرص، فتتولى رعايتهم والإنفاق عليهم، فتسهل لهم تعلم الطب، ليخدموا المجتمع بمعاناة هٰذه الصناعة المهمة، في تدبير صحتهم، ومعالجة مرضاهم، وهذا هو تأميم الطب الذي تدعو إليه الأمم في عصرنا.

وعلى الشخص الذي أنفق عليه المجتمع، وسهل له طلب العلم، أن يوقف نفسه لرعاية صحة أبناء دينه، الذين تولوه وعاضدوه، وإذا قصّر في هٰذا، فإن الإثم يقع عليه؛ لأنه لم يوف المجتمع حقه.

الفصــل الثــالـث
مساهمة المرأة المسلمة في الطب والمواساة

رفـع الإسلام منـزلة المـرأة وحررهـا من القيود، وأعـطاها حقهـا في تدبـير أمـورهـا وأموالها، ﴿ولهُنَّ مثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروف﴾، فالمرأة أول من آمن بالرسول ﷺ، وصدقه وآزره، وخصص عليه السلام أياماً لهن يعلمهن أمور الدين، وما لهن من حقوق، كـما حث على تعليم المرأة القراءة والكتابة، فتعلم عدد منهن.

ورخص الإسـلام للمرأة أن تـزاول الأعمال خـارج بيتها، ومنهـا الطب والمـواسـاة، بشرط أن تؤدي عملها في حدود الشرع، وأن تكون بعيدة عن مظان الفتنة، محافظة عـلى ما سنّه لها الإسلام، مما لا يؤدي إلى مس كرامتها وخلقها، ولا يتعارض مع أداء واجباتهـا، في تدبير البيت، وتربية الأولاد، وخدمة الزوج، وأن يكون هٰذا بموافقة زوجها، أو ولي أمرها.

ولها أن تزاول عملها مع الرجال في حياتها العمليـة، على أن يكـون هٰذا في حـدود ما أوجبـه عليها الشرع من المحـافظة عـلى كـرامتهـا، في وقـار واحتشـام، ولا يؤدي إلى ضرر خلقي، ولها أن تدبر أموالها، وتشرف على شؤونها الاقتصادية، وتساهم في مختلف الأعمال، إن لم يكن في الرجال من يقوم بها.

كـان هٰذا في زمن الـرسول ﷺ، وهـو ممـا أقـره ـ كـما قـدمنـا ـ وسـار عليـه خلفـاؤه الراشدون، فربما ولّوا بعض الصحابيات عملاً من أعمال الرجال، ومن ذلك:

كانت الشفاء بنت عبدالله العدويـة على جـانب من العقل والتـدبير، وكـان الفاروق يقدمها ويرعاها ويفضلها، وربما ولّاها شيئاً من أمر السوق[1].

ونرى بعد هٰذا كثيراً من النسـاء، عانـين مختلف الأعمال مـع بعضهن، ومع الـرجال فشـاركن في العلوم والمعـارف، والتعليم والتـدريس، وفي الكتـابـة للمحـدثـين والأمـراء والخلفاء، وفي دواوين الدولة، وكان منهن من ينقاد إليها أجلُّ الصحابـة، فيأخـذون عنها، وينقادون لرأيها، كأم المؤمنين عائشة، وغيرها كثير.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨ : ١٢١.

ومن الأعمال الجليلة التي ساهمت فيها المرأة: معاناة الطب، ومواساة المرضى، تضمّد الجروح، وتجبر الكسور، وتداوي المرضى، وتسهر على راحة المصاب في ساحات الحرب. تسير مع الجيش، تحمل معها ما يحتاجه المرضى من عقاقير ولفائف، ومواد إسعاف، فتنقل الجرحى إلى خيام الإسعاف، وتعالجهم، كما تقدم للجيش الماء، وتعد الطعام، وتخلفه في رحاله، وإذا اشتدت الحرب حملت السيف، واندفعت إلى ساحة المعركة، تثبت القلوب، وتشجع الجيش، وربما ساهمت في الطعن والضرب.

تقول أم عمارة: نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية، وهي ممن شهد العقبة الثانية هي وأختها، شهدت أحداً مع زوجي وابني، نسقي القوم الماء من سقاء كان معنا، ولما انهزم المسلمون في المعركة انحازت إلى رسول الله ﷺ وباشرت القتال تذب عنه بالسيف، وترمي بالقوس، وجرحت اثنا عشر جرحاً. ولما أقبل ابن قمئة اعترضته بالسيف فضربها على عاتقها.

ويقول عنها الرسول ﷺ، : «ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني»[٢].

وأم سليم بنت ملحان بن خالد الأنصارية: كانت تغزو مع رسول الله ﷺ، واتخذت خنجراً يوم حنين، وقالت: إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. وكان يصاحبها عدد من نساء الأنصار، يسقين الماء، ويداوين الجرحى[٣].

والربيع بنت معوذ بن عفراء الأنصارية: ممن بايع الرسول ﷺ تحت الشجرة. قالت: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، نسقي القوم ونخدمهم، ونداوي الجرحىٰ، ونرد القتلى إلى المدينة»[٤].

ـ أم عطية الأنصارية ـ نسيبة بنت الحارث: غزت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، كانت تخلفهم في رحالهم، وتصنع لهم الطعام، وتجيز الجرحى، وتداوي المرضى، وعاشت

---

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨: ١٩٨ ـ ١٩٩، إمتاع الأسماع: ١: ١٤٨ ـ ١٤٩، سيرة ابن هشام: ١: ٤٤٥ ـ ٤٦٦.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨ : ٢٤٣ ـ ٢٤٤، أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٥ : ٥٩١، سيرة ابن هشام: ٢: ٣٤٠، ٤٤٦ ـ ٤٤٧، حلية الأولياء: ٢: ٥٧ ـ ٦١، الطب النبوي ـ للذهبي: ١١٢.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨: ٧٩ ـ ٨٠، تهذيب الأسماء واللغات: ٢: ٣٤٣ ـ ٣٤٤، البركة في فضل السعي والحركة: ٥٤، أسد الغابة: ٥: ٤٥١، الكرماني شرح صحيح البخاري: ١٢: ١٥٤

إلى زمن الإمام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فكان يقيل عندها، وتقول: «كنت أنشف إبطه بورسة»[5].

ــ أم أيمن ـ زوج النبي ﷺ: اشتركت يوم أحد فكانت تسقي الماء[6].

ــ أم أيمن ـ مولاة النبي ﷺ ـ وحاضنته: اسمها بركة بنت ثعلبة بن عمرو، كانت لأم رسول الله ﷺ، يقول عنها ﷺ: «أم أيمن أمي بعد أمي». شهدت أحداً، تسقي الماء، وتداوي الجرحى، وشهدت خيبر.

ولما قتل عمر ـ رضي الله عنه ـ بكت أم أيمن، فقيل لها: فقالت اليوم وَهَىٰ الإسلام، توفيت بعد قتل عمر[7].

ــ أم ورقة بنت نوفل: قالت: يا رسول الله ﷺ «ائذن لي في الغزو معك، أمرض مرضاكم، وأداوي جرحاكم، ثم لعل الله يرزقني الشهادة»[8].

وكان ﷺ يسهم للنساء اللائي يحضرن القتال، فقد أسهم لهن في غزوة بني قريظة، وهن: صفية بنت عبدالمطلب، أم عمارة، أم سليط، أم العلاء الأنصارية، السميراء بنت قيس الأنصارية، أم سعد بن معاذ، أم كبشة بنت رافع بن عبيد بن ثعلبة[9].

ومن الصحابيات اللاتي عنين بالتمريض والسهر على راحة المصابين:

ــ رفيدة بنت سعد الأنصارية الأسلمية: كانت امرأة تداوي الجرح، وتحتسب بنفسها من كانت به ضبعة من المسلمين.

ولما أصيب سعد بن معاذ في وقعة الخندق قال رسول الله ﷺ: «اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد حتى أعوده من قريب»[10].

وخيمة رفيدة هٰذه هي أول مستشفى كان في الإسلام، وتشرف عليه رفيدة احتساباً لله، ومواساة لعباده.

---

(٥) الإصابة: ٨: ٢٥٩، أسد الغابة: ٥: ٦٠٣، البركة في فضل السعي والحركة: ٥٤.

(٦) إمتاع الأسماع: ١: ١٣٣.

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨: ٢١٢ ـ ٢١٤، تهذيب الأسماء واللغات: ٢: ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٨) حلية الأولياء: ٢: ٦٤ ـ ٦٥، تاريخنا بأسلوب قصصي: ١١٢.

(٩) إمتاع الأسماع: ١: ٢٥٠.

(١٠) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨: ٨١.

ـ كعيبة بنت سعد الأسلمية، أخت رفيدة: شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ فأسهم لها سهم رجل(١١).

وذكر في الإصابة أنه كان لها في المسجد خيمة تداوي المرضى والجرحى، فلعلها كانت تساعد أختها رفيدة، فيما تقوم به في المسجد.

ـ الشفاء بنت عبدالله العدوية: كانت تعالج النملة ـ وهي المعروفة اليوم بالأكزيما، كانت كاتبة في الجاهلية، علّمت حفصة أم المؤمنين الكتابة، وأمرها الرسول ﷺ أن تعلم حفصة رقية النملة، فقال لها: «علّمي حفصة رقية النملة، كما علمتها الكتابة»(١٢).

ـ سلمى أم رافع ـ امرأة أبي رافع: مولاة رسول الله ﷺ ـ شهدت خيبر مع رسول الله، وكانت تعاني القبالة، فهي قابلة إبراهيم بن رسول الله ﷺ(١٣) وقابلة بني فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكانت تعالج الرسول عليه السلام.

ـ أم سنان الأسلمية بنت حنظلة: كانت تعاني تجميل العرائس، وتقول: كنت فيمن حضر عرس صفية، فمشطناها وعطرناها، وكانت من أضوأ ما يكون من النساء، فأعرس بها رسول الله ﷺ.

ولما أراد الرسول ﷺ الخروج إلى خيبر، قالت له: «يا رسول الله أخرج معك، أخرز السقاء، وأداوي الجرحىٰ»، فأمرها أن تكون مع أم سلمى(١٤).

ومن لم تحسن التمريض منهن، كانت تساهم في خدمة الجيش، تسقي الماء، وتعد الطعام، وتصلح ما يحتاجونه، ومنهن:

ـ أم سليط: حضرت يوم أحد، وكانت ممن يغرفن الماء يوم أحد، وقد كناها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بابنها سليط بن أبي سليط، تزوجت بعد أبي سليط مالك بن سنان، فولدت له أبا سعيد الخدري(١٥).

---

(١١) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨: ١٧٦.

(١٢) تاريخ الخط العربي: ٦٠.

(١٣) الإصابة: ٨: ١١٢، أسد الغابة: ٥: ٤٧٨، تهذيب الأسماء واللغات: ٣٤٧.

(١٤) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨: ٢٤٥.

(١٥) الإصابة في تمييز الصحابة: ٨: ٢٤٢، أسد الغابة: ٥: ٥١٠.

ومنهن من كانت تسهم في الطعن والضرب وتهجم على الأعداء، مثل:

ـ أسماء بنت يزيد بن السكن الأوسية الأنصارية ـ خطيبة النساء ـ بايعت النبي ﷺ في نسوة، ثم شهدت اليرموك، وقتلت تسعة من الروم بعمود فسطاطها.[(١٦)]

ومساهمة المرأة في التمريض والمواساة مع الجيوش يكون إذا دعت الحاجة إليهن، ولم يكن غيرهن من يقوم مقامهن، وأن يكون بموافقة وليها، وموافقة من يتولى أمر الجيش، وأن تخرج مع جماعة من النساء، وذلك منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

جاء عن حشرج بن زياد عن جدته أم أبيه: «أنها خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، سادس ست نسوة، فبلغ رسول الله ﷺ، فبعث إلينا، فجئنا فرأينا فيه الغضب، فقال: مع من خرجتن؟ وبإذن من خرجتن؟ فقلن: يا رسول الله، خرجنا نغزل الشعر، ونعين في سبيل الله، ومعنا دواء للجرحى، ونناول السهام، ونسقي السويق، فقال: قُمن، حتى إذا فتح الله عليه خيبر أسهم لنا كما أسهم للرجال. فقلت لها: يا جدة وما كان ذلك؟ قالت: تمراً»[(١٧)].

وقد مر بنا أن أم ورقة بنت نوفل لما أرادت أن تخرج مع جيش رسول الله ﷺ، تقدمت إليه وقالت: يا رسول الله ائذن لي في الخروج معك، أمرض مرضاكم، وأداوي جرحاكم، ثم لعل الله يرزقني الشهادة[(١٨)].

ـ وأم سنان الأسلمية بنت حنظلة: لما أراد الرسول ﷺ الخروج إلى خيبر، استأذنت من رسول الله ﷺ أن تكون معه، فأمرها أن تكون مع أم سلمى[(١٩)].

ـ وأم سليم: كانت تغزو مع رسول الله ﷺ، ومعها نسوة من الأنصار يسقين الماء، ويداوين الجرحى[(١٩م)].

---

(١٦) الإصابة: ٨: ١٢ ـ ١٣، أسد الغابة: ٥: ٣٩٨.

(١٧) الأموال، لابن سلام: ٣٣٤.

(١٨) أسد الغابة في أخبار الصحابة: ٥: ٦٢٦.

(١٩) الإصابة في أخبار الصحابة: ٨: ٢٤٤.

(١٩م) الطب النبوي، للذهبي: ١١٢.

ـ وأمية بنت قيس الغفارية، قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بني غفار فقلن: يا رسول الله، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا، وهو يسير إلى خيبر، فنداوي الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله، فقالت: فخرجنا معه.

فلما فتح رسول الله ﷺ خيبر، رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي تزين عنقي، وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً، فكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها، وهذه القلادة أرفع وسام حصلت عليه امرأة من النبي ﷺ[20].

وفي السلم عانت المرأة المواساة وعيادة المرضى من الرجال وتطبيبهم منذ عهد الرسول ﷺ.

وأول مستشفى في الإسلام هو «خيمة رفيدة»، التي كانت في مسجد رسول الله ﷺ، كانت رفيدة تعالج بها الرجال، ومنهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، أمرها رسول الله عليه السلام أن تشرف على معالجته[21].

وجاء أن سلمى أم رافع ـ إمرأة أبي رافع ـ مولاة رسول الله ﷺ، تقول: ما يكون برسول الله ﷺ قرحة، إلا أمرني أن أضع عليها الحناء [22].

ـ وأم عطية الأنصارية ـ نسيبة بنت الحارث، عاشت إلى زمن الإمام علي كرم الله وجهه، فكان يقبل عندها، وتقول: كنت أنشف إبطه بورسة [23].

ثم نجد عدداً منهن يعانين الكحالة، ومنهن:

ـ زينب طبيبة بني أود: كانت تكحل من به رمد، وقصدها الناس للمعالجة، جاء عنها: روى ابن كناسة عن أبيه عن جده، قال: أتيت امرأة من بني أود تكحلني من رمد

---

(٢٠) سيرة ابن هشام: ٦: ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٢١) الإصابة: ٨: ٨١.

(٢٢) الإصابة: ٨: ١١٢.

(٢٣) الإصابة: ٨: ٢٥٩، أسد الغابة: ٥: ١٠٣،

الورس (بوزن الفلس) نبت أصفر، يكون باليمن، تتخذ منه الغمرة للوجه.

أصابني، فكحلتني، ثم قالت: اضطجع قليلاً حتى يدور الدواء في عينيك، فاضطجعت، ثم تمثلت قول الشاعر:

أمختبري ريب المنون ولم أزر — طبيب بني أود على النأي زينبا

فقالت: أتدري فيمن قيل هذا الشعر؟ قلت: لا والله، فقالت: فيَّ والله قيل، وأنا زينب التي عناها عمك أبوسماك الأسدي [٢٤].

ـ خرقاء العامرية: كانت تكحل العيون، فجاءها ذوالرمة ـ المتوفى سنة ١٢٧ هـ، فداوت عينيه من رمد، فزال، فقال لها: ما تحبين؟ قالت: عشرة بنات أيامى، تشبب بي، ليرغب الناس فيهن إذا سمعوا أن فيَّ بقيّة للتشبيب، ففعل، وقال فيها أبيات منها: [٢٥]

تمام الحج أن تقف المطايا — على خرقاء واضعة الجبين

وقد تعود المرأة الرجل شفقة عليه وتخفيفاً له: جاء في الأدب المفرد في باب عيادة النساء الرجل المريض: «حدثنا زكريا بن يحيى، قال حدثنا الحكم بن مبارك، قال أخبرنا الوليد هو ابن مسلم، قال حدثنا الحارث بن عبيد الأنصاري، قال: رأيت أم الدرداء على رحال أعواد ليس عليها غشاء عائدة لرجل من أهل المسجد من الأنصار» [٢٦].

وجاء في البخاري: حدثنا قتيبة عن مالك عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وعك أبوبكر وبلال رضي الله عنهما، قالت: فدخلت عليهما، قلت يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت: وكان أبوبكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرىءٍ مصبِّح في أهله — والموت أدنى من شِراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً — بوادٍ وحولي إذخرُ وجليلُ

وهل أردنْ يوماً مياه مجنة — وهل تبدَوُنْ لي شامةٌ وطفيل

---

(٢٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ١٢ : ١٠٩.

(٢٥) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ١٦ : ١١٩ ـ ١٢٠

(٢٦) الأدب المفرد، للبخاري: ١٠٥.

قالت عائشة: فجئت إلى رسول الله ﷺ ـ فأخبرته، فقال: اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة، أو أشد، اللهم وصححها، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل حماها فاجعلها في الجحفة [٢٧].

ومعالجة المصاب، والسهر على راحته، وتخفيف آلامه، مما حث عليه الشرع، وأوجبه على كل عالم بالطب والمواساة، سواء كان رجلا أو إمرأة.

وبعض الصحابيات ـ رضي الله عنهن ـ عانين التمريض والمواساة في الحرب والسلم، في عهد رسول الله ﷺ وأثنى عليهن، كما عالج بعضهن رسول الله ﷺ، وعالج بعضهن الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

فالطب: مما عانته المرأة في الإسلام إلى جانب الرجل. يقول معاوية بن أبي سفيان [٢٨] عنهن: « ما مرض المرضى، ولا أعان على حوادث الدهر مثلهن ».

ويذكر ابن حزم الظاهري، عند كلامه عن صناعات النساء في الأندلس: « ومنهن الطبيبة» [٢٩].

ويذكر ابن سينا عند كلامه في طب العيون عن قطرة، فقال: « ركبتها له امرأة خبيرة بصناعة الطب » [٣٠].

وكان لبعضهن محل خاص بالعيادة، يقصدها الناس للمعالجة، فتطب لهم، ومن ذلك: ما ذكره الطبري في تاريخه، فقال: «ذكر أبوالحسن المتطبب بباب المحول، قال: جاءتني امرأة بعدما أدخل القرمطي ـ صاحب الشامة ـ وأصحابه بغداد، فقالت: إني أريد أن تعالج شيئاً في كتفي، قلت: وما هو؟ قالت: جرح، قلت: أنا كحال، وههنا إمرأة تعالج النساء، وتعالج الجراحات، فانتظري مجيئها، فقعدت، قال أبوالحسن: فقمت معها إلى المتطببة ـ لما جاءت ـ وأوصيتها بها، فعالجت جرحها، وأعطتها مرهما. فسألت الطبيبة

---

(٢٧) الكرماني على شرح البخاري: ٢ : ١٨٤.

(٢٨) المستظرف من كل فن مستظرف: ١ ـ ١٥٦، المحاسن والمساوىء، للبيهقي: ٢ : ١٩٩.

(٢٩) طوق الحمامة، لابن حزم: ٣٢.

(٣٠) حضارة العرب، لأسعد داغر: ١٧٤.

عنها بعد مصرفها، فقالت: قد وضعت يدي على الجرح، وقلت لها انفخي، فنفخت، فخرجت الريح من الجرح من تحت يدي، وما أراها تبرأ منه، ومضت فلم تعد إلينا»[31].

والمتتبع لأخبارهن يجد عددا منهن عانين الطب والمواساة بجانب الرجال، ومنهن من أخذ عن أبي بكر بن زهر الحفيد (محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر) لم يكن في زمانه أعلم منه بصناعته، وأخذ عنه كثيرون، منهن: [32]

أخته وابنتها: عالمتان بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور، ولا يُقَبل للمنصور وأهله ولداً إلا أخت الحفيد، أو بنتها لما توفيت أمها.

أم الحسن بنت القاضي أحمد بن عبدالله بن عبدالمنعم بن أبي جعفر الطنجالي، المتوفىٰ سنة ٧٥٠ هـ ـ من أهل لوشة بلدة بالأندلس ـ كانت تجود القرآن، وتشارك في فنون من الطب، وإقراء مسائل الطب، وتنظم الشعر [33].

وبعضهن تقلدن رئاسة الطب، ومنهن: ما جاء عن شهاب الدين بن الصائغ (أحمد بن سراج الدين المتوفىٰ سنة ١٠٣٦ هـ) مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري، ورياسة الأطباء، ولم يخلف إلا بنتاً أخذت الطب عن والدها، وتولت مكانه مشيخة الطب [34].

فالمرأة شاركت في الطب والمواساة، وطبت للرجال والنساء، ورخص الشرع لهن معالجة الرجال عند الضرورة، إذا لم يكن الطبيب حاضراً.

ورخص الشرع للطبيب أن يعالج المرأة، كمعالجة المرأة لها، وله أن ينظر من المرأة ما تنظر المرأة من المرأة ـ إذا دعت الحاجة، ولم يوجد طبيب يطب لها ـ كما للطبيبة التي تعالج الرجل أن تنظر إلى عورة الرجل ما ينظر الطبيب إليه، كل هذا إذا دعت إليه الحاجة، ولم يوجد طبيب يقوم مقامها «فالضرورة تقدر بقدرها».

---

(٣١) تاريخ الأمم والملوك: ١١: ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

(٣٢) عيون الأنباء بطبقات الأطباء: ٢: ٧٠.

(٣٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ١: ١٨٤.

(٣٤) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ١٦٤.

ذلك أن المحافظة على الصحة، والتداوي من المرض، مما أكد عليه الشرع، ولا يجوز التهاون به، ومن تهاون به فقد أثم، لتهاونه في صحة جسده، وهذا ما يجب أن يحافظ عليه قبل كل شيء.

وقد بينت السنة في حديث فاطمة بنت قيس: أن المرأة تنظر من الرجل الأجنبي، إلى ما ينظر إليه الرجل من الرجل، وكذلك تنظر المرأة إلى ما ينظر إليه الرجل من الرجل، فإذا أصيب رجل بمرض، ولم يكن من يطب له، فللمرأة أن تعالجه كما يعالج الرجل الرجل، وبالعكس.

جاء في مغني المحتاج للشربيني ما يأتي: (٣٥)

«واعلم أن ما تقدم من حرمة النظر والمس حيث لا حاجة إليها، وأما عند الحاجة فالنظر والمس مباحان لقصد الحجامة والعلاج ـ ولو في فرج ـ للحاجة الملجئة إلى ذلك، لأن في التحريم حينئذ حرجا، فللرجل مداواة المرأة وعكسه، وليكن ذلك بحضرة محرم أو زوج أو امرأة ثقة ـ إن جوزنا خلو أجنبي بامرأتين، وهو الراجح».

ويشترط عدم وجود امرأة يمكنها تعاطي ذلك من امرأة، وعكسه، كما صححه النووي في زيادة الروضة، وأن لا يكون ذمِّيا مع وجود مسلم، وأن لا تكون كافرة أجنبية، مع وجود مسلمة على الأصح.

وعلى هذا يمكننا أن نحصر شروط الإباحة كما يلي:

١ ـــ عند عدم وجود امرأة تعاني الطب فللرجل أن يطب للمرأة المصابة ـ وبالعكس.
٢ ـــ يعالج الطبيب المرأة بحضرة وليها أو زوجها، أو امرأة ثقة.
٣ ـــ أن لا يكون الطبيب ذميا مع وجود طبيب مسلم.
٤ ـــ أن لا تكون الطبيبة التي تعالج الرجل ذمية، مع وجود طبيبة مسلمة.

هذا ما أقره الشرع في باب الرخص ذلك: أن الضرورات تبيح المحظورات، وباب التيسير في الإسلام واسع «يسروا ولا تعسروا» فقد تكلم الفقهاء رحمهم الله بأبواب واسعة في هذا، ولم يتركوا أمرا إلا وجدوا له بابا من اليسر.

---

(٣٥) مغني المحتاج، للشربيني: ٣:١٣٣، غنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر: ٢٦٧، الطب النبوي للذهبي: ١١٢ ـ ١١٣، معيد النعم ومبيد النقم: ١٧٢.

فالإسلام دين سمح ﴿**ما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ جاء لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وكلف الإنسان بما يطيقه من الأعمال والعبادات، وفسح له باب التخفيف إذا صعب عليه أداء فرض أو واجب أو غير ذلك.

وفي باب التحريم ﴿**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أكل السبع إلا ما ذكيتم...**﴾ ولكن عند الضرورة سمح الشرع للإنسان ـ حفظا لحياته ـ أن يتناول من هذه المحرمات ما يقيم صلبه ﴿**فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه**﴾ وهذا من باب الرخص وهو من الأبواب الواسعة في الشرع الإسلامي.

والخمر محرم في الإسلام: تناوله والمداواة به، ولكنه أباح التداوي به في حالات خاصة: أن تكون حالة المريض مدعاة إلى الموت، ولم يكن ما يغني عنه، وأن يكون الطبيب الذي يصف الخمر ـ دواء ـ مسلما مؤمنا بتحريمه، ولا يتناوله هو بنفسه، وأن يؤيد ضرورة أخذ الخمر كدواء لجنة من الأطباء المسلمين، يجمعون على أنه لابد من أخذ هذا الدواء.

الفصل الرابع
الطب في الدولة الأموية

وفي الدولة الأموية (٤٠ ـ ١٣٢ هـ) اتسعت الدولة الإسلامية، وزاد امتزاجهم بالأمم الأخرى، فأقبلوا على العلوم والمعارف، وفي مقدمة العلوم التي عنوا بها كان الطب، قربوا الأطباء، ورغبوهم في نقل الكتب الطبية إلى اللغة العربية، كما أنهم وضعوا بعض الكتب في الطب، كان هٰذا أول النقل والتأليف في الطب عند المسلمين.

يقول صاعد الأندلسي: «وكانت العرب في صدر الإسلام لا تعنى بشيء من العلم إلا بلغتها، ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب، غير منكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طراً إليها، ولما كان عندهم من الأثر عن النبي ﷺ في الحث عليها، حيث يقول: يا عباد الله تداووا، فإن الله عزّ وجل لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، إلا واحداً، وهو الهرم»[١].

والذي كان له الفضل في هٰذا العمل العلمي الجليل: هو خالد بن يزيد بن معاوية الأموي المتوفي سنة ٨٥ هـ، فقد أجمع من كتبوا عنه أنه أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات.

استعان بعلماء اليونان الذين كانوا في الإسكندرية، وقد تعلموا اللغة العربية، فرغبهم واستقدمهم، وكلفهم بنقل الكتب إلى اللغة العربية.

والذي نقل له كتب الطب هو «يحيى النحوي» الملقب بالبطريق، المنسوب إلى الديلم، كان عالماً، فيلسوفاً، بصيراً بالطب، ومنه أخذ الطب خالد بن يزيد[٢].

وضع خالد عدة كتب في الطب والكيمياء، وعلوم الحكمة والنجوم، فكان عالم أمية وحكيمها، وما قام به نواة صالحة نمت وزكت، ومهد الطريق لمن جاء بعده، فكان رائد

---

(١) طبقات الأمم: ٧٤.

(٢) هو غير يحيى النحوي الاسكندراني اليعقوبي، الذي اجتمع بعمرو بن العاص عندما فتح مصر. انظر عنه: صوان الحكمة: ٢٣ ـ ٢٥.

النقلة والمؤلفين في الطب وغيره من العلوم، ووجه القوم إلى الاستفادة منها، فكانت كتبه مما يرجع إليها الأطباء والعلماء فيما بعد[3].

يقول الرازي في مقدمة كتابه الأسرار: «شرحت في هٰذا الكتاب ما سطرته القدماء من الفلاسفة وأرسطاليس، وخالد بن يزيد، وجابر بن حيان» الخ.[4].

كان لخالد أول مكتبة علمية، فيها ما نقل له من كتب العلوم، وما ألفه هو، فاجتمع عنده مالم يتهيّأ إذ ذاك.

ومن الذين عنوا بنقل الكتب الطبية إلى اللغة العربية وألفوا في الطب، هم:

ـ أهرون القس بن أعين: وضع بالسريانية كتاباً في الطب، يتألف من ثلاثين مقالة[5].

ـ ما سرجويه ـ ماسرجس ـ الطبيب البصري: كان يهودي المذهب في أيام مروان بن الحكم ٦٤ ـ ٦٥ هـ، ونقل كتاب أهرون القس إلى اللغة العربية، وزاد عليه مقالتين، وحفظ في خزائن الكتب الأموية، فأخرجه عمر بن عبدالعزيز ٩٣ ـ ١٠١ هـ لينتفع به الناس.

وله من الكتب: كتاب «قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها»، وكتاب «قوىٰ العقاقير ومنافعها ومضارها»[6].

ثاوذون ـ ثاذون ـ الطبيب: كان طبيباً للحجاج بن يوسف، وله كتاب كبير عمله لابنه. ومن أخباره مع الحجاج: دخل عليه يوماً، فقال له الحجاج: أي شيء دواء للطين؟ فقال له: عزيمة مثلك أيها الأمير، فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إليه[7].

---

(٣) انظر عن خالد بن يزيد:
الفهرست لابن النديم: ٣٣١، ٣٣٨، البيان والتبيين: ١ : ٢٦٠، وفيات الأعيان: ١ : ٢٦٨، أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٤٤، كشف الظنون: ٩٨٦، ١٢٥٤، ١٧٨٤، الأمير خالد بن يزيد ـ للمؤلف.

(٤) تاريخ العلوم عند العرب: ٢٤٨.

(٥) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٥٧، مختصر تاريخ الدول لابن العبري: ١٥٧.

(٦) طبقات الأطباء والحكماء: ٦١، أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢١٣، مختصر تاريخ الدول: ١٥٧.

(٧) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٧٦، ويذهب بعضهم أن «ثاذون» هو «ثياذوق» الذي سيأتي بعده، وقد اختلطت أخبارهما لتشابه اسميهما، فقد تنسب أخبار الأول إلى الثاني، ويذكرون له مناظرات مع الحجاج وغيره، انظر عنه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١ : ١٢١ ـ ١٢٣.

ثياذوق: من أطباء الحجاج بن يوسف، درس عليه بعض التلاميذ، واستفادوا من علمه، منهم فرات بن شحاثا الذي أدرك الدولة العباسية، واختص بعيسى بن موسى العباسي، وتوفي في خلافة أبي جعفر المنصور[٨].

ومن أطباء هذا الدور «ابن أثال اليمني»، كان متميزاً في الأدوية، عالماً بالسموم، استعمله معاوية في التخلص من أعدائه، ثم ولاه معاوية خراج حمص، فقتله خالد بن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد لأنه كان قد سم والده[٩].

ـ أبو الحكم الدمشقي: كان متصلاً بمعاوية بن أبي سفيان، وسيره مع ابنه يزيد إلى مكة، عندما تولى يزيد إمارة الحج[١٠].

ـ فرات بن شحاثا اليهودي: أخذ عن «ثياذوق»، وكان يقدمه على تلاميذه، خدم الحجاج بن يوسف ـ وهو حدث ـ وأدرك الدولة العباسية كما قدمنا[١١].

ونجد طائفة من الرجال والنساء ـ غير الذين تكلمنا عنهم ـ كانوا يعانون قدح العيون، وتكحيلها، ومعالجة الكسور، واستئصال المواد الغريبة من الجسم كالسلع ـ الغدد ـ وبتر بعض الأعضاء الفاسدة، ومعالجة الأسنان مما يصيبها، وشد الأسنان بالذهب، وغير ذلك. وممن وقفنا على أخبارهم:

ـ الساعدي: كان معاصراً لمعاوية بن أبي سفيان، ولما طعن الحجاج بن عبدالله الصيمري سنة (٤٠ هـ)، استدعاه معاوية لتدبير صحته مما أصابه. فقال له الساعدي: اختر إما أن أحمي حديدة فأضعها في موضع السيف، وإما أن أسقيك شربة، تقطع منك الولد، وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فسقاه شربة فبرىء منها، ولم يولد له بعدها[١٢].

وإن عبدالله بن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ سقط في عينيه الماء، فذهب بصره، فأتاه هؤلاء الذين ينقبون العيون، ويسيلون الماء منها، فقالوا: خل بيننا وبين عينيك نسيل

---

(٨) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٤٧، ١٦٩، مختصر تاريخ الدول: ١٩٤.

(٩) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١ : ١١٦ ـ ١١٧، تاريخ اليعقوبي: ٢ : ١١٩.

(١٠) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٢٣.

(١١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٦٩، ٢٠٨، ٢٠٩.

(١٢) الكامل، لابن الأثير: ٣ : ١٧٠.

مـاءهما، ولكنـك تمسك من الصـلا خمسة أيـام. قال لهم: لا والله ولا ركعـة واحدة، إني حدثت: «أنه من ترك صلاة واحدة لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»[13].

وذكر الأصفهاني: أن سكينة بنت الحسين عليه السلام، خـرجت بها سلعـة في أسفل عينهـا، حتى كبرت، ثم أخـذت وجهها وعينهـا، وعظم مـا بها، وكـان «درافيس» منقطعـاً إليها، وفي خدمتهـا، فقالت لـه: ألا ترى مـا قد وقعت فيـه. فقال لهـا: اتصبرين عـلى ما يمسـك من الألم حتى أعالجـك، فقالت نعم، فـأضجعهـا وشق جلد وجههـا أجمـع، وسلخ اللحم من تحتها، حتى ظهرت عروقها، وكان منها شيء تحت الحدقة، فرفع الحـدقة عنهـا، حتى جعلت ناحية، ثم سَلَّ عروق السلعة ـ الغدة ـ من تحتهـا، قال فـأخرجهـا أجم، ورد العين إلى موضعهـا، وسكينة مضجعـة لا تتحرك ولا تـأنى، حتى فرغ ممـا أراد، وزال ذلك عنها، وبرئت منه، وبقي أثر تلك الحزازة في مؤخر عينها، فكان أحسن شيء في وجههـا من كل شيء حلي وزينة، ولم يؤثر ذلك في نظرها ولا عينها[14].

واستعملوا المـرقد عنـد إجراء العمليـات الجراحيـة، ولما دعي الجـزار ليقـطع رجـل «عـروة بن الزبـير قال لـه: نسقيك المـرقد، قـال له عـروة: ما أحب أن أسلب عضـواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فاحتسبه»[*].

وكان شد الأسنان بالذهب ومعالجتهـا معروفـاً عندهم منـذ زمن الخلفاء الـراشدين، فكان عثمان بن عفـان ـ رضي الله عنه ـ يشـد أسنانـه بالـذهب[15]، كما كـان عبدالملك بن مـروان ـ ٨٦ هـ يشد أسنـانه بـالذهب[16]، ومـوسى بن طلحة بن عبـدالله ـ ١٠٤ هـ يشد أسنانه بالذهب[17] أيضاً، مما يدلنا على أن شد الأسنان بالـذهب مما كـان يعانيـه الأطباء في تثبيت الأسنان.

---

(١٣) المصباح المضيء في أخبار المستضيء: ١ : ١٢٥ ـ ١٢٦.

(١٤) الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ١٤ : ١٦٥.

(*) وفيات الأعيان: ١ : ٣١٦ ـ ٣١٧.

(١٥) التنبيه والإشراف: ٢٥٤.

(١٦) المعارف، لابن قتيبة: ١٥٦.

(١٧) المعارف، لابن قتيبة: ١٠٢.

وجاء أن الثريا ـ صاحبة عمر بن أبي ربيعة، ـ ضربته بظاهر كفها، فأصابت الخواتيم ثنيتيه العليين، وكادت أن تقلعهما، وخاف أن يسقطا، فقدم البصرة فعولجتا له، فثبتتا واسودتا[١٨].

ومن النساء اللاتي كن يعالجن العيون: زينب ـ طبيبة بني أود وخرقاء العامرية كانتا تكحلان العيون ـ وقد تقدم الكلام عنهما.

وفي الدولة الأموية أنشىء أول بيمارستان ـ مستشفى ـ في الشام، أنشأه الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) ولم نقف على وصف لهذا المستشفى، ومهما يكن من أمر، فإنه من الأعمال الصحية التي يقصدها الناس للمعالجة.

كما أن الوليد أمر أن يحجروا على المجذومين بدور خاصة، وخصص لهم ما يكفيهم، فأراحهم وخلص الناس منهم.

كما أعطى كل عاجز خادماً، وكل أعمى قائداً، وأنفق عليهم، فكانت أعماله هذه رعاية حسنة للعاجزين[١٩].

واقتدى به الحجاج بن يوسف الثقفي ـ عامله على العراق، فيذكر اليعقوبي أنه عمل البيمارستان للمرضى، ودار الضيافة، وأجرى على العميان والمساكين والمجذومين الأرزاق[٢٠].

---

(١٨) الأغاني: ١ : ٨٩.

(١٩) المعارف، لابن قتيبة: ١٨ ـ ١٩، الكامل، لابن الأثير: ٥ : ٤، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ١١ : ٢٣٤، مآثر الإنافة، للمقريزي: ١٣٦، ٣ : ٣٤٦.

(٢٠) تاريخ اليعقوبي: ٣ : ٣٤.



الفصـــل الخـــامـــس
الطب في العصر العباسي
وما بعـــــده

حـركــة النقـــل

توقفت حركة الفتح في عهد الدولـة العباسيـة (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ) وزاد اختلاط الأمم مـع العرب والمسلمـين، وشاركـوهم في الدين واللغـة والعلوم، ذلـك لمـا لقـوه من العـدل والمسـاواة بين النـاس على اختـلاف أجناسهم، فهم سـواسية كـأسنـان المشط، يتفـاضلون بأعمالهم وأخلاقهم، وما يقدمونه من عمل مثمر.

انتشرت اللغة العربية في البلاد المفتوحة، وطغت على لغاتهم المحلية، التي لم تقو على الوقوف بجانبها، فكانت لغة الدين والدولة والثقافة التي نهض بها المسلمـون، فأقبلوا عـلى نقل العلوم، والتأليف، فكانت نهضة مباركة، أذكاها الدين الإسلامي، وساهم بها الأقوام الذين دخلوا تحت رايته ـ سواء أسلموا أو لم يسلموا ـ لهم مطلق الحرية في الـدين والمساهمـة في العمـل، نجد فيهم: الفـارسي، واليهودي، والـرومي، والهندي، والسريـاني، وغيرهم ـ فالحرية التي لاقوها من المسلمين، وما أفاضـوه عليهم من هبات وهـدايا رفيعـة، ومكانـة مـرموقـة، حملهم على مضـاعفة الجهـد في النقل والتـأليف، ووضعـوا أسس نهضـة علميـة مباركة.

ابتدأت حركـة النقل عـلى يد خـالد بن يـزيد ـ كـما قدمنـا ـ فنقلت له كتب في علوم مختلفة، ونقل غيره من الأطباء بعض الكتب الطبية، كما وضعوا بعض الكتب، هذه الحركة الأموية كانت نواة لما بعدها.

حـرص العباسيـون على مـا وقفوا عليـه من الكتب التي وجدوهـا في خزائن الخلفـاء الأمـويين، كـما أن بعض النقلة أدركوا الـدولة العبـاسية، وسـاهموا في النقـل كعبـدالله بن المقفع، وغيره.

والعباسيون نقلوا مركز الخلافة إلى العراق، وفسحوا المجـال للأمم التي دخلت تحت سلطانهم، أن تسـاهم في الحكم بالإدارة، ممـا أدى إلى ازدياد حـركة الامـتزاج بـين العـرب والشعوب الأخرى، كلهم تحت راية واحدة، ويخضعون لأحكام دين واحد، ويخدمون تراثاً

واحداً هو. . «تراث العرب والإسلام».

أول الخلفاء العباسيين الذين عنوا بالنقل أبو جعفر المنصور (١٣٥ ـ ١٥٨ هـ)، كان عالماً جليلاً، واسع الاطلاع، يقرب أهل العلم، ويجزل لهم العطاء، وفي عهده نشطت حركة التأليف والنقل، نقلت له كتب النجوم والحساب والفلسفة والتاريخ، وسير الملوك والطب ـ وهو ما يعنينا في بحثنا هذا ـ فتوافد العلماء إلى بغداد، يحملون نفائس المخطوطات، ويلاقون إقبالاً وتشجيعاً من الخليفة، ومحبي العلوم والمعارف[1].

ففي سنة ١٤٨ هـ مرض المنصور، وصعب على الأطباء شفاؤه، فاستدعوا إليه رئيس بيمارستان جنديسابور «جورجيوس بن جبريل» المتوفىٰ سنة ١٦٠ هـ، وهو من أسرة معروفة بالطب. ولما مثل بين يدي المنصور، دعا له بالفارسية والعربية، فأعجب الخليفة من حسن منظره ومنطقه، وأمره بالجلوس أمامه، وبعد فحص الخليفة عالجه بما شفاه الله من مرضه، فأنزله الخليفة منزلاً حسناً، وأمر بأن يقدم إليه كل ما يطلبه.

ولما رأى جورجيوس ما لقيه من منزلة رفيعة عند المسلمين، عكف على النقل والتأليف في الطب، فنقل للخليفة كتب الطب عن اليونانية، وتعاقبت أسرته في خدمة الخلفاء بالنقل والتأليف [2].

وفي عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ) زاد الإقبال على النقل والتأليف في الطب[3] وغيره من العلوم، ذلك لما لاقوه من إقبال على العلوم والمعارف، وأفاض عليهم من هداياه ومنحه الكثيرة، فتوافدوا عليه، من الفرس والهند والسريان وغيرهم من الملل الأخرى.

وفي عهد المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) عالم بني العباس، حر التفكير، وجه همه إلى ترجمة كتب الحكمة، وكان يحضر مجالس العلم بنفسه، ويشارك معهم.

ووصف القاضي «أحمد بن صاعد الأندلسي» ما آلت إليه النهضة العلمية في عهد

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/ ١٢٣، كشف الظنون: ٢/ ٦٧٩، مروج الذهب: ٢/ ٥١٤ ـ ٥١٥، مشاكلة الناس: ٢٣.

(٢) عيون الأنباء: ١/ ١٢٣ ـ ١٢٥، أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٠٩.

(٣) الفهرست: ٣٤٢، عيون الأنباء: ٢/ ٣٣.

المأمون فقال: (٤) «لما أفضت الخلافة إلى الخليفة السابع عبدالله المأمون، تمم ما بدأ به المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، واستخرجه من معادنه، بفضل همته الشريفة، وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة، وسألهم صلته بما لديهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة، فاستخار لها مهرة التراجمة، وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حضّ الناس على قراءتها، ورغبهم في تعلمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصره، وتنافس أولو النباهة في العلوم، لما كانوا يرون من إحضائه لمنتحليها، واختصاصه لمقلديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذ بمذاكراتهم، فينالون عنده المنزلة الرفيعة، والمراتب السنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين، وأهل اللغة والأخبار، والمعرفة بالشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة، وسنوا لمن بعدهم منهاج الطب، ومهدوا أصول الأدب، حتى كانت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام إكتمالها، وزمان اجتماع شملها».

وفاتح ملوك الروم بإرسال مافي خزائنهم من كتب العلوم والحكمة، فحصل على الكثير منها. وبلغ من شغفه بهذه الكتب أنه إذا عقد معاهدة مع بعض الملوك، يشترط عليهم أن يقدموا إليه ما في خزائنهم من نفائس المخطوطات العلمية التي يندر وجودها عند غيرهم.

ومن ذلك ما أشترطه مع ملك قبرص، وما اشترطه مع ملك الروم ميخائيل الثالث، وغيرهما. فاجتمع في بغداد نفائس المخطوطات في الطب والفلسفة والعلوم الأخرى(٥).

كما أنه أوفد العلماء إلى البلاد التي فيها مخطوطات علمية نادرة فجمعوا له عدداً منها ترجمت إلى اللغة العربية، وأودعت في «بيت الحكمة» لتكون مرجعاً سهل التناول لكل من يريد الاطلاع عليها(٦).

---

(٤) طبقات الأمم: ٧٤ ـ ٧٥.

(٥) الفهرست: ٤٠٩ ـ ٤١٠، ٤١٤، أخبار العلماء: ٧١٧ ـ ٧١٨، عيون الأنباء: ١/١٨٦، طبقات الأطباء والحكماء: ٦٨ ـ ٧٢، خزائن الكتب في الخافقين: ١/٤٨، تاريخ العرب لحتي: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٦) أنظر عن بيت الحكمة الذي كان ببغداد، ومن عمل فيه بالنقل والتأليف: بيت الحكمة: ١٥ ـ ١٧، ٢٤ ـ ٢٦.

واستمرت حركة النقل والتأليف في العلوم، ومنها الطب إلى القرن الرابع للهجرة، فكان هذا العصر من أزهى العصور التي مرت بها بغداد لما فيها من حركة علمية جليلة.

وكتب الطب التي نقلت في هذا العصر كان أكثرها عن اليونانية والهندية، والسريانية.

المنقولة عن اليونانية:

أما الكتب اليونانية، التي نقلت إلى العربية[٧]: فقد اشتغل بنقلها علماء من العرب والسريان والصابئة، وتفوق عدد منهم بدقة النقل، وتصحيح ما نقله غيرهم، فأعادوا النظر فيها، واستدركوا عليها، ومن هؤلاء:

ـ ماسرجويه، وابنه عيسى: فإنهما ساهما في النقل وفي تأليف بعض الكتب [٨].

ـ آل جورجيوس بن جبريل بن بختيشوع: فقد تعاقب أبناء هذه الأسرة في النقل والتأليف ومعاناة الطب وحصلوا على هبات كثيرة.

ـ آل الكرخي: أولهم شهدي الكرخي، وابنه، وهذا نقل كتاب الأجنة لأبقراط[٩].

ـ قسطا بن لوقا البعلبكي ـ ٢٠٥ هـ: كان من المتفوقين في النقل، وخاصة ما نقله من كتب الطب، له تصانيف مختصرة بارعة في الطب وغيره، كما كان بارعاً في علوم كثيرة منها: الفلسفة، والهندسة، والأعداد، والموسيقا، كان فصيحاً في اللغتين اليونانية والعربية، وهذا ما ساعده على أن يدخل إلى بلاد الروم، ويحصل على كتب كثيرة[١٠].

أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني (٢١١ ـ ٢٨٨ هـ) انتقل إلى بغداد، ولم يكن في عصره من يماثله في صناعة الطب، ولا في غيره من العلوم، جيد النقل، حسن العبارة، قوي المعرفة، نقل عدة كتب في الطب وغيره من العلوم، وله كتاب في تشريح بعض الطيور، وأظنه مالك الحزين، وهو أحد النقلة الأربعة المتفوقين في الإسلام، ومن تلامذته

---

(٧) أنظر عنها: الفهرست: ٣٤٠ ـ ٣٤١، عيون الأنباء: ١/٢٠٣ ـ ٢٠٦، الطب العربي: ٢٢٠ ـ ٢٢١، تاريخ التمدن الإسلامي: ٣: ١٣٨ ـ ١٤٣، ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٨) عيون الأنباء: ١/٢٠٤.

(٩) عيون الأنباء: ١/٢٠٤.

(١٠) الفهرست: ٤١٠ ـ ٤١١، أخبار العلماء: ١٧٣، طبقات الأطباء والحكماء: ٧٦، عيون الأنباء: ١/٢٤٤ ـ ٢٤٥.

الذين تخرجوا عليه في النقل والتأليف عيسى بن أسيد، وله كتاب « جوابات ثابت»[11].

وقد أجمع مؤرخو العلوم أن حذاق النقل في الإسلام أربعة: حنين بن إسحاق العبادي، ويعقوب بن إسحاق الكندي، وثابت بن قرة الحراني الصابي، وعمر بن الفرخان الطبري[12]، هؤلاء هم أساتذة النقل، امتاز ما نقلوه بالأمانة والدقة، ووضوح العبارة، فوضعوا أسس القواعد التي يسير عليها النقلة، فكان كل واحد منهم مدرسة في النقل العلمي، وتخرج عليهم عدد من النقلة، أغنوا المكتبة العلمية بما نقلوه من كتب الطب وغيره، وبما وضعوه من كتب قيمة.

أما حنين بن إسحاق العبادي (١٩٤ ـ ٢٦٠ هـ)، فهو عربي من قبيلة العباد، الذين سكنوا ظاهر الحيرة، وكان بعضهم يعاني الصيرفة والصيدلة. درس حنين عدة لغات، اليونانية والرومية، والفارسية، والسريانية، وتفوق في اللغتين، لغته العربية، واللغة اليونانية، كان فصيحاً بهما، وقالوا عنه: إنه لم يوجد في زمنه بعد الاسكندر الأفرودوسي أعلم من حنين بالعربية واليونانية.

فحنين أحد أعلام النقل الدقيق، يمتاز عمله بأنه لم يقنع بما نقله من تقدمه، فأعاد النظر فيما نقلوه، واعتمد في نقله على عدة نسخ قديمة من المخطوط الذي ينقله، يقارن بينها، يصحح ما يراه محرفاً، وإذا عز عليه الوقوف على بعض النسخ الأصلية، ساح في عدة بلاد طلباً لبغيته، يقول عند كلامه عن كتاب «البرهان» لجالينوس: بحثت عنه بحثاً دقيقاً، وجبت في طلبه أرجاء العراق، وسوريا، وفلسطين، ومصر، إلى الإسكندرية، فجاء نقله نموذجاً دقيقاً لمن أخذ عنه، أو وقف على كتبه، فهو أستاذ النقلة في عصره، ومقرر قواعد النقل الصحيح لمن جاء بعده، وعرفت الكتب التي نقلها بالدقة والأمانة ووضوح العبارة، كما علق على بعضها، التي نقلها غيره، وأبدى رأيه فيما رآه صواباً، وبلغ عدد الكتب التي نقلها حوالي مائة كتاب، وتخرج عليه عدد من العلماء الذين عملوا تحت إشرافه في النقل والتأليف[13]، منهم:

ــ إسحاق بن حنين ـ ٢٩٨ هـ: تخرج على والده، فكان يترجم تحت إشرافه، وتفوق

---

(١١) أخبار العلماء: ٨١ ـ ٨٥، عيون الأنباء: ١/٢١٧ ـ ٢٢٠.

(١٢) أخبار العلماء: ١٦١ ـ ١٦٢.

(١٣) أنظر عن حنين بن إسحاق العبادي: الفهرست: ٤٠٩ ـ ٤١٠، أخبار العلماء: ١١٧ ـ ١٢٢، طبقات الأطباء والحكماء: ٦٨ ـ ٧٢، تاريخ حكماء الإسلام: ١٦ ـ ١٨، عيون الأنباء: ١/١٨٤ ـ ٢٠٠، تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان: ٤/١٠٣ ـ ١١٥، مجلة الجامعة: ٤/٤.

في عمله. أسلم وحسن إسلامه، وأشركه الخليفة المكتفي في بيعة إبنه مع وزيره العباس بن الحسن، وبلغ من تفوقه في النقل والطب أن بعضهم كان يفضله على أبيه في دقة النقل(١٤).

ــ داود بن حنين شقيق إسحاق: كان طبيباً، وخلف والده في النقل، وألف في الطب.

ــ حبيش بن الأعسم: ابن أخت حنين، كان حنين يقدمه على تلاميذه، ويرضى عن نقله، وقيل من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له، فإن أكثر ما نقله حبيش نسب لحنين. مما يدلنا على تمكنه في النقل، وله عدة كتب في الطب والمعالجات (١٥).

ــ عيسى بن يحيى بن إبراهيم الناقل: اشتغل على حنين بالنقل والطب، فكان من تلاميذه المجودين، وله مؤلفات في الطب (١٦).

ــ اصطفن بن بسيل: ترجم عدة كتب إلى العربية، واتبع طريقة مثلى في نقل ما علم من الأسماء اليونانية في وقت له اسماً في اللسان العربي، فسره بالعربية، ولم يعلم له في اللسان العربية اسماً تركه في الكتاب على اسمه اليوناني، اتكالاً منه على أن يبعث الله من بعده من يعرف ذلك ويفسره في اللسان العربي(١٧).

ــ موسى بن خالد الترجمان: من النقلة الذين أخذوا عن حنين، هو ويحيى بن هارون وغيرهم (١٨).

أما يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي ـ ٢٦٠ هـ: فهو من قبيلة كندة العربية، ولد في الكوفة، وكان أبوه أميراً عليها، وتلقى علومه في البصرة، ثم انتقل إلى بغداد زمن المأمون والمعتصم، وله مصنفات جليلة، ورسائل كثيرة جداً في جميع العلوم، خاصة في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون، والهندسة وطباع الأعداد، وعلم النجوم، ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره، وله تآليف في الطب، امتاز بأنه أوضح

---

(١٤) تاريخ حكماء الإسلام: ١٨ ـ ١٩، الفهرست: ٤١٥، مختصر تاريخ الدول لابن العبري: ٢٥٢.

(١٥) الفهرست: ٤١٤، أخبار العلماء: ١٢٢، تاريخ حكماء الإسلام: ١٩، مختصر تاريخ الدول: ٢٥٢ ـ ٢٥٣،

(١٦) الفهرست: ٤١٤.

(١٧) عيون الأنباء: ٢/٤٦ ـ ٤٧

(١٨) عيون الأنباء: ١/١٨٩.

المشكلة، ولخص المستصعب، وبسط العويص فكان أحد حذاق الترجمة في الإسلام، واشتهر في الملة الإسلامية في التبحر في فنون الحكمة فهو «فيلسوف الإسلام» في عصره، ولم يكن من يطلق عليه هذا أحد غيره، وتدرب عليه كثيرون، منهم: ولده أبوالعباس، وحسنويه، ونفطويه، وسلمويه، ورحمويه، وأحمد بن الطبيب، وغيرهم، وامتاز بأنه كان يعالج المرضى بالموسيقا والألحان[١٩].

ـ أبوسعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني ـ ٣٣١ هـ، كان متفوقاً في الطب والترجمة، خدم من الخلفاء: المقتدر، والقاهر، والراضي، وتقلد البيمارستانات في بغداد زمن المقتدر، وكان يعتمد عليه الخليفة وأرباب الحكم في اختبار الأطباء، ومنع من لم يحسن صنعته، كما أن له الفضل في تدبير بيمارستانات السجون، والبيمارستانات المتنقلة، وأنشأ سنة ٣٠٦ هـ بيمارستان السيدة أم المقتدر على دجلة، وجلس فيه، ورتب إدارته، كما أشار على الخليفة المقتدر أن يتخذ بيمارستاناً وسماه باسمه البيمارستان المقتدري، وقد أسلم وحسن إسلامه [٢٠].

ومن كتب الطب التي نقلت من اللغة الهندية إلى اللغة العربية:

كتاب «الشاناق في السموم والترياق»، نقله منكة الهندي، استقدمه الرشيد إلى بغداد ليقوم بتدبير صحته، وكان بارعاً في الطب والمعالجة، يعرف اللغتين العربية والفارسية، فكان ينقل من اللغة الهندية إلى الفارسية والعربية[٢١].

ومن الأطباء الهنود الذين خدموا الرشيد في النقل والمعالجة:

صالح بن بهلة الهندي كان مسلماً، يعاني الطب والنقل[٢٢].

ـ ابن دهن الهندي: كان طبيباً يشرف على مارستان البرامكة، ويعاني النقل والتأليف[٢٣].

---

(١٩) الفهرست: ٣٥٧ ـ ٣٦٥، أخبار العلماء: ٢٤٠ ـ ٢٤٧، طبقات الأطباء والحكماء: ٧٣ ـ ٧٤، مختصر تاريخ الدول: ٣٥٧ ـ ٣٦٥، التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب الكندي: ٢٠.

(٢٠) عيون الأنباء: ١/٢٢٠ ـ ٢٢٤، أخبار العلماء: ١٣٠ ـ ١٣٣.

(٢١) الفهرست: ٤٢١، عيون الأنباء: ٢/٣٣.

(٢٢) عيون الأنباء: ٢/٣٤ ـ ٣٥.

(٢٣) الفهرست: ٣٤٢.

ـ كنكه الهندي: له نظر في صناعة الطب، وتركيب الأدوية، وضع كتاباً في الطب[٢٤].

ومن الكتب التي نقلت عن الهندية: كتاب شرك الهندي، نقله عبدالله بن علي من الفارسي إلى العربي، وكتاب «بدان» أمر بنقله إلى العربية يحيى بن خالد البرمكي، وغير هذا[٢٥].

استمرت هذه الحركة بتوسع إلى القرن الرابع للهجرة، فكانت عصر الأصالة والإبداع الذي ابتدأ منذ القرن الثالث للهجرة.

فالبلاد التي انسلخت عن الدولة العباسية في القرن الرابع وما بعده، كانت وجهتها العلمية بغداد، وهي من العوامل المهمة في نشر العلوم والمعارف في البلاد الإسلامية، فإن الذين انفصلوا حرصوا على أن يزينوا بلادهم بنشر العلوم والمعارف فيها، فاستقدموا العلماء، ورغبوهم في النقل والتأليف والتدريس، وتنافسوا في هٰذا، وصار للعلم حواضر عديدة مثل: حلب، ودمشق، ومصر، وشمال أفريقيا، والأندلس، وبلاد خراسان، وما وراء النهر، وغيرها من البلاد، نبغ فيها أعلام الفكر، مهرة الأطباء والعلماء، وأثروا التراث العربي الإسلامي بما أبدعوه من ثمرات عقولهم.

فالقرن الرابع الهجري ـ على ما فيه من ضعف سياسي للدولة العباسية ـ كان من أزهى العصور التي شهدها العالم الإسلامي، في الأصالة والإبداع العلمي، ومن الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في اختلاف المجالات العلمية، وسارت بخطى واسعة، وتركت آثاراً قيمة، استمرت إلى القرن السابع للهجرة.

ولو أردنا البحث فيما نقلوه وما أبدعوه في الطب وغيره من العلوم والمعارف لاحتاج الأمر بحثاً مطولاً، لا مجال لذكره. وفي كتب العلماء الذين بحثوا عن النقل والتأليف والإبداع متسع لمن أراد أن يقف على هٰذه الحركة المباركة، التي أنارت للعالم سبل العلم والمعارف.

---

(٢٤) عيون الأنباء: ٣٢/٢.

(٢٥) انظر عن الكتب التي نقلت عن اللغة الهندية ومن قام بنقلها:
الفهرست: ٤٢١، عيون الأنباء: ٣٢/٢ـ ٣٣، تاريخ التمدن الإسلامي: ١٥٣/٣.

والذين قاموا بهذا العمل الجليل هم العرب المسلمون، وغيرهم ممن دخلوا في حظيرة الإسلام، من فرس وروم ويونان، وهنود وسريان وغيرهم، كلهم تأدبوا بآداب الإسلام، وكتبوا باللغة العربية، وساهموا في إثراء التراث الإسلامي. فهم، وإن لم يكونوا مسلمين في الدين، كانوا عرباً مسلمين في الثقافة والعلوم، كان هٰذا بفضل الحرية التامة، التي كانوا يتمتعون بها في ظل الإسلام، لهم مطلق الحرية فيما يقولون ويكتبون، وما يبدونه من آراء، فأطباء الخلفاء أكثرهم من النصارى، ولهم منزلة لدى الخليفة وأرباب الدولة، حتى إن بعضهم كان يجلس مع الخليفة، والقواد وأرباب الأمر وقوف بين يديه.

ذلك أن الفتح الإسلامي لم يكن فتح استعمار وإذلال واستغلال خيرات البلاد، وإنما هو فتح تحرير ومساواة بين الناس، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، والأخلاق الفاضلة، وبما يقدمه للمجتمع من عمل مفيد ـ هذا ما حمل الأقوام أن يدخلوا في هٰذا الدين الحنيف، وأن يخدموا التراث العربي الإسلامي، فكانت اللغة العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ هي لغة الدين والدولة، ولغة الثقافة والعلوم والمعارف، فتأدبو بالآداب العربية الإسلامية، فكانوا عرباً في الثقافة والعلم والأدب.

والكتب العلمية ـ ومنها الطب ـ التي نقلت أو ألفت، لم تكن مقصورة على طبقة دون أخرى، وإنما أودعوها في بيوت خاصة بها، هي: بيوت الحكمة، وخزائن الحكمة، ودور العلم، وفتحوا أبوابها لكل راغب، ذلك حباً بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الشعب كافة.

هٰذه الدور مؤسسات للثقافة العالية، كان لها الفضل في تيسير العلوم والمعارف بين الناس، فهبوا إلى ارتيادها، والأخذ عن علمائها، والاستفادة من كتبها، فكانت نهضة علمية مباركة، حفظت تراث الأقدمين، وتراث العلماء الذين نقلوها وهذبوها ونقحوها، وزادوا عليها بما ألفوه من الكتب الثمينة.

وفي بيوت الحكمة دوائر خاصة للنقلة والمؤلفين، في كل قسم علماء أجلاء في النقل والتأليف، ويعمل بين يدي كل منهم عدد من العلماء، الذين تدربوا عليه، يوجههم ويرشدهم، ويصحح أبحاثهم من نقل وتأليف.

وأبواب الدور مفتوحة يلجأ إليها الراغبون في الاستزادة من البحث والتتبع والدرس،

أو للمطالعة والمعارضة والبحث والنقد والتعليق، أو للأخذ عن العلماء الذين تصدروا فيها لشرح ما أشكل على كل قاصد يبغي الاستفادة.

كما نجد في الدار الوراقين والمجلدين وحفظة الكتب، الذين يسهلون على المراجعين ما يطلبونه، والمناولين الذين يقدمون لهم الكتب، ويرشدونهم إلى المراجع.

والحرية التامة مطلقة في بيت الحكمة، تجد فيه العلماء من مختلف الأقوام والأهواء والملل والنحل، لهم حرية الرأي والقول فيما يكتبونه ويبدونه. تجد فيه الشعوبي المغالي في بغض العرب، مثل عَلّان الورّاق. وسهل بن هارون، وغيرهما، وفيه النصارى، مثل حنين بن إسحاق وجماعته، وغيرهم كثير.

والمستشرقون، ومن سار في ركابهم، يحاولون أن يبعدوا العرب والمسلمين عن الأصالة العلمية والإبداع، فيقولون عن أكثر النقلة والمؤلفين أنهم ليسوا من العرب، وهم يعلمون حق العلم أن النقل بدىء بأمير عربي هو خالد بن يزيد الأموي، وانتهى إلى أمير عربي، هو يعقوب بن إسحاق الكندي، وأن حُذّاق النقلة في الإسلام أربعة كلهم من العرب، ولكن لمرض في قلوبهم، لا تطاوعهم أنفسهم أن يصرحوا بهذا، بل يحاولون إبعاد العرب والمسلمين عن كل فضيلة.

فمثلا يقولون عن حنين بن إسحاق العبادي العربي: «الناطق بالسريانية»، ويتجاهلون عروبته، فهل معرفته اللغة السريانية تخرجه عن عروبته؟ كان حنين يتقن عدة لغات: العربية، واليونانية، والفارسية، والسريانية، والقبطية، فلم صار الناطق بالسريانية؟ مع أن الذين تكلموا عنه ذكروا أنه كان عالماً باللسان العربي، فصيحاً باللسان اليوناني، ولم يوجد في زمنه ـ بعد الاسكندر الافرودسي ـ أعلم من حنين بالعربية واليونانية، فالعربية لغته، وقرأ كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي، ووقف على دقائقها، واليونانية تعلمها في بلاد الروم، حتى كان كأنه من أهل هٰذه اللغة، إذا ما أنشد الإلياذة لهوميروس، فلم لا يكون الناطق باليونانية؟ والأصح المتكلم بلغته العربية لغة آبائه وقومه.

تعلم لغة لا تخرج المتعلم عن أصله ولغته، فأبناؤنا يدرسون في جامعات متنوعة وبلغات مختلفة، فرنسية، وإنكليزية، وألمانية، وروسية. . . الخ، وبعضهم يُدِّرس في هذه اللغات، فهل يعني هٰذا أنه الناطق باللغة التي درس بها، ونسي لغته الأم—.

أما المستشرقون، الذين يحرفون الحقائق، فيحاولون إبعاد أكثر الفضائل عن العرب والمسلمين، وتجريدهم عن كل ما أبدعوا فيه وقدموه للعالم، يختلفون أسماء خيالية ينسجون حولها، ولكن نسيجهم هٰذا أشبه بخيوط العنكبوت **﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾**.

فحنين العربي ترجم وألف في اللغة العربية أكثر من مائة كتاب، وعمل عنده عدة علماء منهم: ابنه إسحاق بن حنين، الذي أسلم، وحسن إسلامه، وأشركه الخليفة المكتفي في بيعة ابنه مع وزيره العباس بن حسن، وأصلح حنين لطلابه نحو سبعين كتاباً كلها في اللغة العربية، ومع هذا كله يطلق عليه المستشرقون «الناطق بالسريانية».

وقدمنا أن حُذَّاق الترجمة كانوا من العرب اتبعوا أدق الطرق في نقلهم: اعتمدوا على نسخ عديدة في كل ما ينقلونه، وأعادوا النظر فيما نقله من قبلهم، ونبهوا على ما وجدوه سواء كان حقاً أم باطلاً، ومهدوا البحث العلمي لمن يحاول النقل والتأليف في العلوم والمعارف، كلهم كانوا على علم واسع في لغتهم العربية، واللغات التي نقلوا عنها، والعلم الذي ينقلونه، وهٰذا ما يجب أن يكون عليه كل ناقل ليكون نقله دقيقاً.

ولم يقف المسلمون عند هٰذا، فإنهم أعادوا النظر فيما نقلوه، وجربوا ما احتاج منه إلى التطبيق العملي، فما وجدوه حقاً، أثنوا على المؤلف، وذكروه بكل احترام وإجلال، وماوجدوه خلاف هٰذا، نبهوا عليه، وعلقوا ما يرونه من وجه الصواب، من غير أن ينتقصوا المؤلف حقه.

يقول ابن رشد في هٰذا: «ثم ننظر في الذي قالوه، وما أثبتوه، فما كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم، وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه، وحذرنا منه وعذرناهم.

التراث ليس مقصوراً على أمة دون غيرها، ومنها العلوم، فهي علوم الإنسان منذ وجد على الأرض، كل أمة مهما كانت عليه من التفوق في العلم أو الانحطاط، لها مساهمتها في تراث الإنسانية وإنما يتوقف تراث الأمة على ماتقدمه أو تكمله أو تطبقه من العلوم والمعارف. يكون هذا بالبحث والتدقيق والتجربة والمحاكمة والتنسيق والتبويب ثم التأليف.

فاليونان أخذوا علوم وادي الرافدين، ووادي النيل، وعلوم الهند والروم وفارس وغيرهم من الأمم: بوبوها وهذبوا بعضها، وأضافوا إلى ما وصل إليهم مما وقفوا عليه بالدرس والمحاكمة، فكان لهم الفضل في حفظ تراث من تقدمهم، وتنسيقه والإضافة إليه.

والمسلمون: كان لهم تراث وأخذوا عن أمم كثيرة، وقفوا على علومهم ومعارفهم بالنقل والتحقيق والتنقيح والإضافة، ثم التأليف، ووضعوا آراء دقيقة، وعلوماً نافعة ونظريات لم يهتد إليها من سبقهم في زمن يسوده الجهل والظلمات، فكان لهم تراث زاخر غني بعلومه ومعارفه هو التراث «العربي الإسلامي» الذي حمل الأوربيين فيها بعد أن يدرسوه على العرب أنفسهم ليقفوا على ما وضعه المسلمون في اختلاف المجالات العلمية ـ من طب وغيره ـ من غير أن ينقصوا أحداً حقه، فكانت كتبهم تدرس في الجامعات الأوربية عدة قرون، هذا هو التراث العربي الإسلامي الذي أنار للعالم سبل العلم عدة قرون، ولم تزل آثارهم التي تركوها تنطق بما كانوا عليه من التفوق في العلوم والمعارف.

على أن بعض الأوربيين الذين بحثوا بروح علمية، فإنهم اعترفوا بفضل المسلمين على الحضارة العالمية، وما كان لهم من أثر في حفظ تراث من سبقهم، وفي التحقيق والتتبع والإضافة والابتكار.

يقول مسيو ليبري عن فضل العرب على النهضة الأوربية: وأنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم، فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز اعترافاً أبدياً.

ويقول أيضاً: لو لم يظهر العرب على مسرح التأريخ، لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون[٢٦].

وإن أرنست رينان ـ على الرغم من تعصبه الشديد ضد العرب والمسلمين إلا أنه، يعترف بما لهم من فضل على الحضارة العالمية ويقول[٢٧]:

إن العلوم والحضارة والآداب مدينة بازدهارها وانتشارها للعرب وحدهم مدة ستة قرون.

---

(٢٦) حضارة العرب: ٥٦٨

(٢٧) من أعلام الطب العربي: ١١ ـ ١٢

ويقول أيضاً: ما دخلت مسجداً قط إلا تملكني انفعال شديد، هو لو أفصحت عنه نوع من الأسف، على أني لم أكن مسلماً.

ويقول المؤرخ الفرنسي لوركيه في كتابه الفن والتأريخ[٢٨]: إن العرب وضعوا قدمهم في تأريخ الإنسانية ثابتة وغيروا معالم الدنيا، وحولوا وجهة التأريخ إليهم، فكانوا ملوك الأمم، وقادة الشعوب، وورثة الأرض.

ويقول الفيلسوف الفرنسي المسلم رينيه جيبون، وكان يدعو نفسه عبدالواحد يحيى: إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية، أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه من الحضارة العربية في القرون الماضية، بل ربما لم يدركوا منها شيئاً مطلقاً، وذلك لأن الحقائق التي تلقى إليهم حقائق مشوهة حظها من الصحة قليل[٢٩].

وأما تأثيرهم بالطب وما يتبعه من علم الصيدلة والعقاقير والمشافي، فيعترف الأوربيون بما للمسلمين من فضل في هذا، وما قدموه من خدمات صحية للإنسانية لم يهتد إليها من قبلهم.

يقول غوستاف لوبون: [٣٠]: والطب مدين للعرب بعقاقير كثيرة؛ كالسليخة، والسنا المكي، والراوند، والتمر الهندي، وجوز القيء، والقرمز، والكافور، والكحول، وما إلى ذلك.

وهو مدين لهم بفن الصيدلة، وبكثير من المستحضرات، التي لا تزال تستعمل؛ كالأشربة، واللعوق، واللزقات، والمراهم، والدهان، والمياه المقطرة... الخ.

والطب مدين لهم كذلك بطرق طريفة في المداواة، عاد إليها أنها اكتشافات حديثة، بعد أن نسيت زمناً طويلاً، ومنها طريقة امتصاص النبات بعض الأدوية، كما صنع ابن زهر الذي كان يعالج المرضى المصابين بالقبض، بإطعامهم عنباً أشرب من بعض المسهلات.

وعلم الجراحة مدين للعرب أيضاً، بكثير من مبتكراته الأساسية، وظلت كتبهم فيه مرجعاً للدراسة في كليات الطب إلى وقت قريب جداً. ومن ذلك أن العرب كانوا يعرفون

---

(٢٨) - (٢٩) من أعلام الطب العربي: ١١ - ١٢

(٣٠) حضارة العرب: ٤٩٢ - ٤٩٦

في القرن الحادي عشر من الميلاد معالجة غشاوة العين، بخض العدسة أو إخراجها، وكانوا يعرفون عمليةتفتيت الحصاة التي وصفها أبو القاسم بوضوح، وكانوا يعرفون صب الماء البارد لقطع النزف، وكانوا يعرفون الكاويات والفتائل. . . . وكانوا يعرفون المرقد الذي ظن أنه من مبتكرات العصر الحاضر، وذلك باستعمال الزوان لتنويم المريض قبل العمليات المؤلمة حتى يفقد وعيه وحواسه

ويقول غوستاف لوبون عن تفوق العرب في علم الصحة: كان العرب يعرفون جيداً أن علم الصحة يعلمنا طرق الوقاية من الأمراض، التي لا يستطيع الطب شفاءها، وكانت مناهجهم الصحية طيبة منذ القديم، وما أمر به القرآن من الوضوء والامتناع عن شرب الخمر، ثم ما سار عليه أبناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غاية في الحكمة، وليس فيما نسب إلى النبي من الوصايا الصحية ما ينتقد.

وكان العرب يعتمدون كثيراً على علم الصحة في معالجة الأمراض، وعلى الوسائل الطبيعية، وليس غير ذلك أمر الطب القائم على المداواة الطبيعية التي استقر عندها العلم الحديث كما يظهره ويلوح لي - على الأرجح - أن الطب العربي في القرن العاشر من الميلاد لم يؤد إلى وفيات أكثر مما يقع في هذه الأيام.

الفصـــل الســادس
أنــواع المسـتشفيــات

من الأعمال الجليلة التي حث عليها الإسلام، تأميم الطب، والمحافظة على صحة الفرد والمجتمع، وتسهيل أمر العلاج والرعاية الصحية.

فتنافس المسلمون في إقامة المستشفيات(*) المختلفة، وفتحوا أبوابها لكل قاصد، يلقى فيها المعالجة والرعاية، وكل وسائل الراحة. وهي مباحة للجميع، سواء كان من أهل البلد أو من الطارئين عليها، فلكل واحد حق الرعاية والتمتع بما أوقف في المستشفى من وسائل العلاج، فالدين الإسلامي لم يفرق بين أهل البلاد أو الجنسيات، مهما بعد بعضها عن بعض ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ فالكل مشتركون في هذا الأجر العظيم.

أول مستشفى ثابت في الإسلام هو «خيمة رفيدة»، التي كانت في مسجد رسول الله ﷺ ورفيدة هذه هي أول ممرضة في المستشفى، ترعى المرضى وتعالجهم. كما أن عبدالله بن الزبير أقام خيمة في المسجد الحرام بمكة المكرمة، عند خروجه على الدولة الأموية، ينقل إليها المرضى والجرحى للمعالجة.

والخليفة الوليد بن عبدالملك هو أول من بنى المستشفى في الشام، واقتدى به الحجاج بن يوسف الثقفي ـ عامله على العراق ـ فشيد مستشفى في العراق. ومهما يكن من أمر، فإن هذا المستشفى كان بسيطا، وفيه بعض الأطباء، والخدم، والمشرفون وصيدلية، وغير ذلك.

وفي العصر العباسي تقدم الطب بفضل ما نقلوه عن الأمم الأخرى من الكتب الطبية، وما وقفوا عليه من أمور المعالجة، فشيد هارون الرشيد أول مستشفى في بغداد، وأمر جبريل بن بختيشوع أن يشرف على تدبيره، فرتب لرياسته ماسويه الخوزي، أحد أطباء جنديسابور، وكان جبريل نفسه يتفقد هذا المستشفى.

وشيد البرامكة ـ وزراء هارون الرشيد ـ بيمارستانا آخر، وأوكلوا أمره إلى «دَهَنْ الهندي»، وهو أحد الذين نقلوا كتب الطب عن الهند.

(*) في المصادر القديمة يطلقون على المستشفى اسم: «البيمارستان أو المارستان»، وقد آثرنا أن نسميها «بالمستشفى» ومع هذا أشرنا في بعضها على ما كانوا يسمونها بها.

وهبَّ المحسنون وأهل الخير على إنشاء المستشفيات الكبيرة في المدن، ومستشفيات العزل للزمنىٰ والمجذومين وأهل العاهات، والمستشفيات المتنقلة بأنواعها المختلفة، وكلها لإعالة المرضى ومعالجتهم.

وكانت المستشفيات الكبيرة التي في المدن متفاوتة في السعة، وفي وسائل العلاج، وعدد الأطباء الذين يعملون بها، وما فيها من وسائل الراحة، وغير ذلك، فقد كان في بغداد ـ على عهد الدولة العباسية ـ أربعة عشر بيمارستانا، وكان في الموصل سنة ٦٦٠ هـ بيمارستانان: أحدهما داخل سور المدينة، والثاني في ربضها الأسفل، وثالث للمصابين بالجنون والماليخوليا.

ويمكننا أن نصنفها حسب أنواعها إلى:

أ ــ المستشفيات الثابتة

١ ــ المستشفيات الكبيرة، التي تكون لمعالجة المرضى الذين يرقدون فيها، والمرضى الذين يقصدونها لأخذ العلاج.
٢ ــ المستشفيات التي تكون في السجون.
٣ ــ المستشفيات التي تكون في المدارس الكبيرة التي تشبه الجامعات، كالمدرسة المستنصرية.

ب ــ مستشفيات العزل

١ ــ دور المجانين.
٢ ــ دور الزمنىٰ والمجذومين.

جـ ــ المستشفيات المتنقلة

١ ــ المستشفيات التي تكون مع الجيوش.
٢ ــ مستشفيات السبيل التي ترافق قوافل الحجاج والمسافرين.
٣ ــ المستشفيات المحمولة إلى القرى والأرياف والأماكن النائية.
٤ ــ مستشفيات الإسعاف التي تقام في الأماكن التي يكثر فيها اجتماع الناس.

د ـ الملاجىء الخيرية

١ ـ دور العجزة.
٢ ـ دور العميان.
٣ ـ دور الأيتام والملاقيط.
٤ ـ الرباطات.

أولا المستشفيات الثابتة

المستشفى (البيمارستان)

١ ـ الموقع

كانوا يختارون أجمل المواقع وأوسعها التي يشيد عليها البيمارستان، فقد يكون على النهر أو في المواقع البعيدة عن الضوضاء.

كان مارستان السيدة الذي أنشىء سنة ٣٠٦ هـ في بغداد على دجلة[١]، وكذا البيمارستان الذي شيده المقتدر في بغداد ٣٠٦ هـ، يقع على دجلة أيضاً[٢].

والبيمارستان العضدي الذي شيَّده عضد الدولة البويهي كان على دجلة، وأدخلوا إليه الماء ينساب في حدائقه وساحاته، مما يلطف المناخ، ويروّح عن المرضى بمشاهدة الماء المتدفق في النافورات، وينساب إلى الأحواض، يسقي بستان البيمارستان، كما أن موقعه على دجلة يسهل نقل المرضى بالسفن إلى البيمارستان[٣].

(١) ـ (٢) أقامت شغب أم الخليفة المقتدر بيمارستان السيدة، وافتتح في أول محرم سنة ٣٦٠ هـ، وكان هذا تحت إشراف سنان بن ثابت بن قرة الحراني.
كما أشار سنان على الخليفة المقتدر ببناء مارستان في باب الشام ببغداد، فبناه وافتتح في سنة ٣٠٦ هـ.

(٣) شيد البيمارستان عضد الدولة البويهي، في موضع قصر الخلد في بغداد، وكانت مساحته ٢٥ ألف آجرة. ابتدىء بعمارته سنة ٣٦٨ هـ، وانتهى منه سنة ٣٧١ هـ.

والبيمارستان الذي شيَّده مجاهد الدين قيماز الرومي ـ ٥٩٥ هـ في الربض الأسفل ـ من الموصل على دجلة، يشرف على النهر، وما يحف به من مروج وغابات، ومناظر بهيجة تروح عن المرضى[٤].

والبيمارستان النوري الذي شيده نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، في محل جميل، ينساب الماء في قاعاته، ويقول عنه خليل الظاهري، عندما زار دمشق: « وبه مارستان لم ير مثله في الدنيا قط »[٥].

ومن طرقهم التي كانوا يختارون صحة هواء المكان الذي يبنون به بيمارستان: يذبحون خروفا ويقطعونه أربعة أرباع ويعلقونها بأرباع المدينة ليلا فإذا أصبحوا فحصوا القطع، فما وجدوها أحسن رائحة، بنوا البيمارستان في الربع الذي كانت فيه ـ وهذا ما اتبعوه عندما بنوا البيمارستان النوري العتيق في مدينة حلب[٦].

يعنون بحسن تخطيطه، وزخرفته، بصورة تبعث البهجة في نفس المريض، يزينونه بالنقوش البديعة، والزخارف الجميلة، والكتابات المختلفة، والأساطين الرخامية المصقولة، والأواوين الواسعة، والساحات المختلفة، وما يكون فيها من حدائق وأزهار ورياحين، يتدفق الماء في أجنحته من نافورات، ينساب منها الماء إلى أحواض، ويتفرع فيسقي البساتين، كما كان هذا في البيمارستان الكبير النوري، الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في مدينة دمشق سنة ٥٤٩ هـ.

والبيمارستان الذي أنشأه أبويوسف يعقوب بن يوسف ـ من ملوك الموحدين بالمغرب ـ في مدينة مراكش: تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه بالنقوش البديعة، والزخارف المحكمة، وأن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، وفيه أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض، وكان يشرف عليه إلى أن توفي سنة ٥٩٥ هـ[٧].

---

(٤) جوامع الموصل: ٥٦، الموصل في العهد الأتابكي: ٩٠، ٢٤٧ هـ.

(٥) أسسه نور الدين محمود (٥١١ ـ ٥٦٩ هـ).

(٦) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٢٢٤.

(٧) المعجب في أخبار المغرب ـ دولة الموحدين: ١٨٦ ـ ١٨٧.

أما بيمارستان غرناطة الذي أنشأه محمد بن يوسف بن إسماعيل، الذي تولى الملك سنة ٧٥٥ هـ، فكان فخماً متعدد المساكن، وساحات رحبة صحيحة الهواء، وأنشأ فيه خزائن ومتوضآت، تتدفق المياه فيه من فورات الرمل، وسود الصخر، وتموج البحر، وانسدال الأشجار، فكان جميلاً في موقعه وتخطيطه وسعته وأشجاره وتنسيقه[٨].

والبيمارستان المنصوري الذي شيده الملك المنصور قلاوون الصالحي الألفي ملك مصر في القرن الثامن للهجرة: ـ مساحته تبلغ عشرة آلاف وستمائة ذراع، فكان يمتاز بحدائقه الواسعة، وفيه أربعة أواوين فخمة، في كل واحد نافورة يتدفق منها الماء، ويدور في قاعات المرضى، وينساب فيسقي الأزهار والرياحين التي كانت تزين هذا البناء وما فيه من ساحات وأجنحة، مما لم يكن مثلها في بيوت المترفين[٩].

ووضع بعض الأطباء كتباً في شروط بناء المارستان، وما يجب أن يكون عليه، ومنهم أبوبكر محمد الرازي[١٠].

٢ ـ أقسام المستشفى

يقسم المارستان إلى قسمين: جناح خاص للرجال، وآخر للنساء، وكل جناح منهما فيه قاعات للأمراض المختلفة، مفصولة عن بعضها، قاعة للكحالة، وأخرى للجراحة، وثالثة للتجبير، وأخرى للأمراض الباطنية. وقد تقسم هذه القاعة إلى أقسام حسب نوع المرض الباطني، للمحمومين «المصابون بالحمى»، للمبرودين، المتخومين، إلخ.

تجهز كل قاعة بالأثاث الذي يريح المرضى: من تخوت وفرش وطراريح وأنطاع ولحف ومخدات وملاءات، فيكون لكل مريض تخت خاص به، وعليه من الفرش ما يؤمن راحته.

وفي بعض المارستانات تكون الفرش من الكتان والصوف والحرير والأديم الجيد النوع، متقنة الصنع، جميلة المنظر.

---

(٨) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٩) أنظر عن المارستان المنصوري: السلوك لمعرفة دول الملوك: ١، ٩٩٧/٣ ـ ١٠٠٢، وتاريخ البيمارستانات: ٨٣ ـ ١٧٢.

(١٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٣١٠/١.

وفي المارستان ثياب خاصة تقدم للمريض عند دخوله المارستان، وهي نظيفة، يشرف الخدم على نظافتها وغسلها إذا اتسخت.

وقاعات المارستان واسعة، يحرصون على نظافتها، وما فيها من أثاث، وقد يتخللها الماء ينساب إليها، أو يتدفق من نافورات، تحف بها حدائق فيها الأشجار والرياحين والأزهار.

أما المصابون بالجنون، فلهم قاعات خاصة بهم، بعضها للرجال، وأخرى للنساء، يحجزهم عن المارستان قضبان من حديد، يشرف عليهم أطباء للمعالجة، ويرعاهم المشرفون والخدم يؤمنون راحتهم، ويدبرون أمورهم ومعاشهم.

٣ ـ الصيدلية

والصيدلية من أهم ما يكون في البيمارستان، فيها أنواع الأدوية والعقاقير الحشائش التي يحتاجها المرضى في المعالجة، يشرف عليها طبيب مختص بعلم الأدوية، وطرق تركيبها، ويعمل تحت يديه القومة المشرفون والخدم، يساعدونه بما يوجههم إليه من عمل في تقديم الأدوية إلى المرضى، الذين هم في المارستان.

وللصيدلية مخزن فيه من العقاقير ما يكفي لأكثر من سنة مما يحتاجه المرضى، وإذا ما قلت مادة في المخزن أسرعوا إلى إبتياع ما يحتاجونه منها.

والمشرف على المخزن يتفقد ما فيه دوما، ويتدارك ما نقص دون تأخير.

ففي سنة ٦٢٦ هـ أخبر عبدالعزيز القبيطي أحد تجار بغداد، أن مخزن المارستان العضدي خال من الحوائج، وسأل صاحب المخزن خازن المارستان والطبيب والقوام عن صحة مدعاه، فأعلموه أن ما في مخزن المارستان من حوائج تكفي لسنة واحدة، وأن ما أخبر به التاجر كذب، لعله يريد تصريف بضاعة عنده، فعوقب التاجر على كذبه(١١).

والدواء يعطى لكل مريض في المارستان. وفي بعض المارستانات يعطى الدواء لكل مريض، سواء كان في المارستان أو خارجه، فالدواء موقوف على كل مريض، على الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، والذكر والأنثى.

---

(١١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: ٣/١

وإذا عـزت بعض الأدوية في المـدينة، وكـانت متوفـرة في المارستـان، فإنها تقـدم لمن يحتاجها، سواء عولج في المارستان، أو من طبيب خارجي.

وكـل علاج أو تـدبـير يكتبـه الـطبيب للمـريض، لا يؤخـر، ولا يتـوانى في تحضـيره وتقديمه.

وتحضير الدواء يكون تحت إشراف طبيب عالم بـالعقاقـير، فهو الـذي يقدر مـا وصفه الطبيب المعالج من كل نوع، ويعهد به إلى الذين يعملون تحت إشرافه من القومة والمشرفين والمناولين وغيرهم، فيقومون بإعداد وتركيب الدواء من أشربة ومعاجين، وتراكيب الأكحال والشيافات (الفتيلات)، والسفوفات والمراهم والأدهان والدريـاقات وغـير ذلك، كـل هذا يجري تحت إشراف الطبيب، الذي قدر لهم المناسيب من كل نوع ويشرف على أعمالهم.

وأما ما يحتاج منها إلى طبخ، فيعد في مطبخ ملحق بالصيدلية[١٢].

وتحضير الأدوية مستمر ليلاً ونهاراً، وذكر بعض الذين زاروا المارستان النـوري الكبير بـدمشق ـ في القرن الثـامن للهجرة ـ : «أنـه لم تخمد منـه النار منـذ بني، سنة ٥٤٩ هـ إلى زماننا هذا»[١٣].

وذكر النويري عند كلامه عن المارستان المنصوري في القاهرة وما كـان يصرف فيه من الأدوية، فقال: فكان يصرف منه في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة ما يـزيد عـلى خمسة قناطـير بالمصري، ٢٥٠ كيلوغـرام، في اليوم الـواحد، للمـرتبين والـطوارىء، غير السكر، والمطابيخ من الأدوية، وغير ذلك من الأدهان والدرياقات[١٤].

٤ ــ المخـــزن

وهو لخزن الأثاث والآنية والطعام وما يحتاجه المرضى في تـدبير أمـورهم، وقد يكـون فيه ما يكفي لمن في المـارستان لسنـة واحدة، يشرف عليـه ناظـر، ويعمل بـين يديـه خازن

---

(١٢) كان هذا في البيمارستان المنصوري في القاهرة: كتاب السلوك: ٩٩٩/٣/١

(١٣) مما أوقفه نور الدين محمود في المارستان الذي شيد بدمشق، عيون الأنباء: ١٥٥/٢

(١٤) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٢٠٦.

كان هذا سنة ٧٠٣ ـ ٧٠٧ هـ. كتاب السلوك في معرفة دول الملوك: ٩٩٩/٣/١

وعمال، وعلى الخازن أن يشرف على ما في المخزن، وما يصرف منه لحاجة المرضى، كما يسعى إلى إكمال ما ينقص منه، وللمخزن مبلغ معين مما أوقف للمارستان.

٥ ـ الحمام

وفي المارستان حمام للرجال، وآخر للنساء، وهما للمرضى، ولمن يعمل في المارستان، ويتولى أمرهما قيم لحمام الرجال، وقيمة لحمام النساء، وفيهما من يساعد المرضى على الاستحمام.

٦ ـ المطبخ

يطبخ فيه ما يقدم للمرضى من طعام، يعنون بجودة طبخه، وحسن نوعه، ويكون مما يصفه الطبيب للمرضى، وللمطبخ مشرفون يراقبون عمال المطبخ، ونظافتهم، ونظافة الآنية والقدور، وما يتبعها من آنية الطبخ والتقديم، وكمية الطعام الذي يقدم إلى المرضى، بحيث يكون مطابقاً لما قرره الطبيب.

٧ ـ البستان

وفي البيمارستانات الكبيرة بستان واسعة، فيها أنواع الأشجار المثمرة، ويغرس فيها الأزهار والرياحين، يتخللها نافورات، يتدفق منها الماء، ويتوزع في أرجاء البستان وفي قاعات المرضى.

٨ ـ الطعام

كانوا يتنافسون في تقديم أجود أنواع الطعام للمرضى، يقدم الطعام كما يكتبه الطبيب المعالج لكل مريض مما يوافق صحته، ويخفف مرضه.

والغذاء ـ في بعض المارستانات ـ يعطى مع وصفة العلاج، لكل من يقصد المارستان للمعالجة، سواء كان غنياً أو فقيراً. وأما الذين في بيوتهم، ويعجزون عن الحركة، فيحمل

إليهم الغذاء مع الدواء إلى بيوتهم. جاء أنه كان يحمل من المارستان المنصوري في بعض الأيام ما يزيد على مائتين غير المقيمين في المارستان.

فالغذاء الذي يكتبه الطبيب لا يؤخر مهما كان نوعه وثمنه، فإنه يقدم إلى المريض مع الدواء.

يعنون بطعام المرضى: بجودة نوعه، وحسن طبخه، ونظافته، وتقدم إليهم الفواكه والحلوى والمشهيات، وغير ذلك.

ووضع الأطباء كتباً في أغذية المرضى، وما يناسبهم، ومنهم أبوبكر محمد بن زكريا الرازي، وضع كتاباً في «أغذية المرضى». كما وضع نجيب الدين محمد بن علي بن عمر السمرقندي، المتوفى سنة ٦١٩ هـ كتابا في «أغذية المرضى». وغيرهما.

يطبخ الطعام في مطبخ البيمارستان ويشرف عليه المشرفون والخدم الذين يتقنون صناعة الطبخ ونظافته.

٩ ـ المكتبة

مما كانوا يوقفونه في المارستانات الكبيرة، جملة من الكتب التي تبحث في الطب والعقاقير، ومما له علاقة بها، ومن المعاجم، وكتب اللغة، وكتب الحيوان والنباتات، يستعين بها الأطباء فيرجعون إليها عند تدريسهم الطب في المارستان، فتكون في متناولهم عند الحاجة إليها، وقد يرجعون إليها إذا ما أشكل عليهم أمر، كما تكون مرجعاً قريباً للطلاب الذين يتلقون الطب في المارستان. ومن الذين أوقفوا الكتب في المارستان الذي عمروه:

ـ أحمد بن طولون المتوفىٰ سنة ٢٧٠ هـ، فإنه أودع ما يزيد على ألف مجلد من الكتب الطبية وغيرها في المارستان الذي أقامه في القاهرة[١٥].

ـ والملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، المتوفىٰ سنة ٥٦٩ هـ، فقد أوقف في المارستان الكبير الذي أقامه بدمشق جملة كبيرة من الكتب الطبية وغيرها، وأودعت في الخرسانتين اللتين في صدر الإيوان الذي يجلس فيه الأطباء للتدريس[١٦].

---

(١٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ١٠١/٤ ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٣٩

(١٦) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ١٧٤/٦ ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٣٦

١٠ـ وسائل الترويح

مما كان يخفف عن المريض ويبهج نفسه ما كانوا يعنون به من اختيار أجمل المواقع لبناء المارستان، وما يبدعونه في تخطيطه وتزويقه بالنقوش والزخارف الجميلة، والكتابات البديعة، واتخاذ النافورات في أقسامه، وتدفق المياه إلى ساحاته وحدائقه، وما فيها من أشجار وأزهار ورياحين.

كما كانوا يرفهون عن المرضى ـ في بعض المارستانات ـ بالصوت الحسن في الغناء والموسيقا، لأنهم يرون أن الصوت الحسن يسري في الجسم والعروق، فيصفو الدم، وتنمو النفس، وترتاح الروح، وتهتز الجوارح، وتخف الحركات بالسماع، فيعلل به المريض، ويشغله عما به من الألم والتفكير[١٧].

ففي بعض المارستانات خصصوا مبالغ من الوقف للأجواق الموسيقية، التي تتردد على المارستان كل يوم، لتسلية المرضى بالغناء، أو بالعزف على الآلات الموسيقية، لتخفيف ألم الانتظار، وطول الوقت على المرضى[١٨].

كما كان المؤذنون في المساجد يؤذنون في السحر، وفي الفجر مدة قبل الميعاد، لكي يخفف هذا عن المرضى الذين أضجرهم السهر، وطول الوقت[١٩].

وفي مارستان سيدي فرج بمدينة فاس، موسيقيون يلحنون أمام المرضى، وينفق عليهم من وقف المارستان[٢٠].

وبلغ من حرصهم على راحة المريض أنهم كانوا يعدون له ثياباً لليل، وأخرى للنهار، وذلك حسب الموسم، كما كان هذا في مارستان المنصور أبي يوسف الذي أقامه في مدينة مراكش[٢١].

---

(١٧) الموسوعة التيمورية: ١٨٤، وإخوان الصفا: ١٥٨/١

(١٨) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ١٠٣، ٢٨٧، ٢٨١، ٩٦

(١٩) المرجع نفسه: ٢٨٧

(٢٠) المرجع نفسه: ٢٨١

(٢١) من كتاب: المعجب في أخبار المغرب: ١٨٦

أما مارستان مكة المكرمة: فكانوا يأوون إليه علواً وسفلاً، وينتفعون بالإقامة، والسكن فيه، لا يزعجهم أحد، ولا يخرجهم، بل يستمرون إلى أن يحصل لهم الشفاء والعافية، فيخرجون باختيارهم[٢٢].

أما في المارستان المنصوري: فقد جعل لمن يخرج من المرضىٰ عند برئه كسوة، ومن مات جهزه، وكفّن ودفن. ولا يخرج منه كل من يبرأ من مرض حتى يعطىٰ إحساناً وإنعاماً: كسوة للباسه، ودراهم لنفقاته[٢٣].

١١ ـ دور النقاهة

لم تقتصر المعالجة على شفاء المريض، فكانوا يعنون بتدبير نقاهته، وإعطائه مدة كافية، يريح نفسه من عناء المرض، لتعود إليه صحته كاملة، تعينه على مزاولة عمله.

ووضع بعض العلماء كتباً في تدبير الناقة من المرض. ومنهم حنين بن إسحق العبادي فإنه وضع كتاباً في «تدبير الناقة»[٢٤].

ونجد في وقفيات بعض المارستانات مخصصات تنفق على الناقهين من المرضى.

ففي مارستان مراكش الذي شيده أمير المؤمنين المنصور بن أبي يوسف المراكشي ـ في القرن السادس للهجرة ـ كان: إذا نقه المريض، فإن كان فقيراً، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وتركته وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل على كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح، أو يموت[٢٥].

وجاء عن المارستان المنصوري: يعطىٰ لكل مريض حين خروجه من المارستان خمس قطع من الذهب، حتى لا يضطر إلى الإلتجاء إلى العمل الشاق في الحال[٢٦].

ولم تقتصر بعض المارستانات على مساعدة المرضى فقط، بل تكون للفقراء والمساكين، والمرضى والمنقطعين، يأوون إليه علواً وسفلاً، وينتفعون بالإقامة والسكن فيه،

(٢٢) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٩٦، ١٠٣، ٢٨١، ٢٨٧.

(٢٣) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٩٦، ١٠٣، ٢٨١، ٢٨٧.

(٢٤) الفهرست: ٤١٠

(٢٥) من كتاب: المعجب في أخبار المغرب: ١٨٦.

(٢٦) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ١٨٢.

لا يـزعجهم أحـد، ولا يخـرجهم، بـل يستمـرون إلى أن يحصـل لهم الشفـاء والعـافيــة، فيخرجون بإختيارهم[٢٦].

١١ ـ نفقــة المستشـفـى

وما ينفق على المارستان يكون من حاصلات الأوقاف المرصدة له، يتولى تدبيرها ناظر أمين، يشرف على نفقة من في المارستـان، وهذا يتـوقف على سعـة المارستـان، ومن فيه من المـرضى، فكان ينفق عـلى مارستـان السيدة أم المقتـدر ستمائـة دينار في الشهـر، وينفق على مارستان الخليفة المقتدر مائتي دينار في الشهـر[٢٧]، وعلى المـارستان النـوري الكبير في الشـام خمسـة عشر ديناراً في الشهـر[٢٨]، وعـلى مـارستـان صـلاح الـدين الأيـوبي مـائتي دينـار في الشهر[٢٩].

أما المارستان المنصوري، فكان من أعظم المارستانات في الإسلام، فكان يكحل فيـه كل يوم من المرضى الداخلين إليه، والناقهين الخارجين، أربعة آلاف نفس، وتارة يزيـدون وينقصون، ولا يخرج منه كل من يـبرأ من مرضـه حتى يعطى إليـه إحسانـاً وإنعامـاً: كسوة للباسه، ودراهم لنفقاته.

وأما ما يعالج به المرضى من قناطير الأشربة المقّطرة، والأكحال الرقيقة الطيبة. فشيء يهول السماع، ويعم ذلك الجميع، إلى ما يضاف إلى ذلك كله، من لحوم الطير والأغنام على اختلافها، وتباين أصنافها، مع ما يحتاجه كل واحد ممن يوافيه ويحل فيه، لفرشـه وعرشـه، من غطاء ووطاء، ومشموم ومزور(*)، وشبه ذلك مما هو معد على أكمله هنالك. ومـا ليس مثله إلا في منزل أمير أو خليفة.

ومـا أوقف فيه من دواء أو طعـام مريض، كـان سبيلاً لكـل من يصل إليـه في سائـر الأوقات، ورتب فيه لمن يطلب، وهو في منزله، ما يحتاجه، من الأشربة والأغذية والأدوية،

---

(٢٧) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/٢٢٢

(٢٨) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٣٣

(٢٩) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٧٧

(*) المزور: والميزر: شراب الذرة. وهو ضرب من الأشربة (مختار الصحاح: ٦٢٣).

حتى إن هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات على مئتين، غير من هو مقيم بالمارستان.

فكان يصرف منه في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة ما يزيد على خمسة قناطير بالمصري في اليوم الواحد، للمرتبين والطوارىء غير السكر والمطابيخ من الأدوية، وغير ذلك، ومن الأغذية والأدهان والدرياقات[٣٠].

هذا يوقفنا على كثرة الأوقاف التي أرصد ريعها للنفقة على المارستان وإدامته، وذكر بعض المؤرخين عند كلامه عن المارستان النوري الكبير، وما كان يقدم فيه من الأدوية وتدبير المرضى: أنه لم تخمد منه النار منذ بني، سنة ٥٤٩ هـ، إلى زمننا[٣١].

مستشفى المدرسة

أقاموا في المدارس الكبيرة ـ كالمدرسة المستنصرية في بغداد وغيرها ـ التي كانت أشبه ما تكون بالجامعة في أيامنا هذه ـ مستشفى خاصا بمن في المدرسة من أساتذة وموظفين وقومة وخدم وفراشين وغيرهم.

ففي المدرسة طبيب أو أكثر يعالج المرضى، وفيها صيدلية مجهزة بالعقاقير والأدوية والمعاجين، وكل ما يحتاجه المرضى، يتولاها صيدلاني، ومعه من يساعده في تحضير الأدوية التي ينهيها الطبيب المعالج للمرضى.

يعنىٰ القومة بالإشراف على المرضىٰ ليلا ونهارا، يرفعون أحوالهم إلى الطبيب المعالج، وبعد أن يطلع على حالة المريض يوجه القومة إلى ما يراه يريح المريض، وإذا رأى حالة المريض بحاجة إلى إعادة فحصه، يذهب مع الموكل إليه من القومة، فيعيد فحصه، ويسأله عما يشكو منه، وقد يبدل علاجه فيعطيه ما يخفف عنه مرضه.

وهذا الطبيب يشتغل عليه عشرة أنفس من المسلمين، ولهم الدراية الواسعة، يأخذون عليه الطب نظريا وعمليا[٣٢].

---

(٣٠) في كتاب تاريخ البيمارستانات في الإسلام بحث واسع عن بيمارستان المنصوري، وكذا في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ للمقريزي: ١/٣/٩٩٧ ـ ١٠٠٢

(٣١) ذكر هذا ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ.

(٣٢) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن القوطي، طبع بغداد، ص: ٥٩

ومن المحسنين الذين قدموا تسهيلات لطلاب العلم، والإعتناء بصحتهم وإراحتهم السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ ـ ٥٨٩ هـ)، فإنه رصد أوقافا كثيرة في مصر وغيرها من البلاد، ينفق ريعها على معالجة طلاب العلم، وتقديم ما يريحهم، وما يحفظ صحتهم.

ومن ذلك ما وصف الرحالة ابن جبير الأندلسي ما كان عليه الحال في مدارس مدينة الإسكندرية التي زارها سنة ٥٧٨ هـ، فقال:

« ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه ـ صلاح الدين ـ المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وأجراً يقيم به جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا ذلك، ونصب لهم مارستان ـ مستشفى ـ لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء، وقد رتب أيضا فيه أنواعاً برسم الزيارة للمرضى، الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور، من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليكلفوا بمعالجتهم»(٣٣).

مستشفى السجن

يكون لمعالجة من بالسجن، وأقدم ذكر له وقفنا عليه يرجع إلى وزارة أبي الحسن علي بن عيسى الجراح(٣٤)، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ.

وزر للخليفة المقتدر بالله العباسي، ومن بعده، وكان من أجل الوزراء في الدولة العباسية متدينا متعففا، عارفا بالأعمال، حافظا للأموال، رفيقا بالرعية، أسقط كثيرا من الضرائب والمكوس التي كانت أثقلت الناس، وأوقف للحرمين الشريفين أوقافا جليلة، ووضع ديوانا خاصة للأعمال الخيرية، سماه «ديوان البر»، يقول عنة الصولي: « ما أعلم أنه

---

(٣٣) رحلة ابن جبير الأندلسي عند كلامه عن مدينة الإسكندرية.

(٣٤) أخبار علي بن عيسى الجراح مستفيضة في كتب التاريخ، منها:

ـ الوزراء والكتاب لأبي هلال الصابي: ٣٠٥ ـ ٣٦٠، تجارب الأمم لابن مسكويه ـ الجزء الأول، تاريخ الطبري، الكامل لابن الأثير، الفخري في الآداب السلطانية، وغيرها.

لبني العباس وزير يشبه علي بن عيسى في زهده وعفته وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه وكتابته وحسابه وصدقاته ومضراته».

كان يتفقد الأعمال بنفسه ليقف على مافي البلد، ومن ذلك:

زار سجون بغداد وتفقد حالة المساجين وساءه ما يشكون من مرض، وليس في السجن من يخفف بؤسهم ومرضهم، فيقدم لهم العلاج والطعام، والكسوة والمنام، فكتب إلى رئيس الأطباء «سنان بن ثابت الصابي» وكان هذا يتقلد المارستان في بغداد:

«فكرت ـ مدّ الله في عمرك ـ في أمر من في الحبوس، وأنهم لا يخلون، ـ مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم ـ أن تنالهم الأمراض، وهم معوقون عن التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم، فينبغي ـ أكرمك الله ـ أن تفرد لهم أطباء، يدخلون إليهم في كل يوم، ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون من المزورات، وتقدم إليهم، بأن يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى، ويريحوا عليه فيما يصفونه لهم ـ أن شاء الله تعالى»[35].

فامتثل سنان الأمر، ورتب أطباء وصيادلة، وقومة يكونون في السجون، لمعالجة من يمرض، وتقديم العلاج اللازم، ورتبوا في السجون من يقوم بتثقيفهم وتوجيههم إلى الأخلاق الفاضلة، وإقامة شعائر الدين، وفي كل سجن إمام يدخل إليهم أوقات الصلوات يعظهم ويأمرهم بأداء الصلاة ويسألهم عما أشكل عليهم، ويكون راتب الإمام من بيت المال.

---

(٣٥) أخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي: ١٣٠ ـ ١٣٣.

ثانياً ـ المستشفيات المتنقلة

مستشفى السبيل

وهي التي ترافق القوافل في حلها وترحالها، ومنها التي تكون مع المواكب المتوجهة إلى بيت الله الحرام، فتجهز بمواد الإسعاف، وما يحتاجه المرضى، تودع في صناديق خاصة بها، وذلك مع الطبيب والممرضين، الذين يشرفون على صحة من في القافلة، ويعالجون من يحتاج إسعافاً.

وكان المحسنون ومحبوا الخير يتنافسون في النفقة على هذه المارستانات ويسمونها «مارستانات السبيل»، تكون لمعالجة كل مريض يمرون عليه، سواء كان في القافلة، أو من أهل الريف الذي يمرون به، أو منقطعاً في الطريق، فيسعفونه كما يقدمون له الطعام والكسوة، وواسطة النقل، إن احتاج إلى هذا.

وأقدم ذكر وقفنا عليه لهذا المارستان، يعود إلى القرن الأول للهجرة، وذلك أن معاوية بن أبي سفيان، أرسل أبا الحكم الدمشقي الطبيب، مع ولده يزيد إلى مكة عندما ولي ابنه يزيد إمارة الحج، ليشرف عليه، وعلى من في القافلة من المرضى[٣٦].

ومن طريف ما يروى أن ولده الحكم بن أبي الحكم المذكور، سار مع عبدالصمد بن علي بن عبدالله بن العباس، عندما تولى إمرة الحج، وبين يزيد وعبدالصمد مائة ونيف وعشرون سنة[٣٧].

كانوا يعهدون أمر المارستان والإشراف عليه إلى رجل عاقل أمين، يحسن التصرف بصرف العلاج إلى مستحقيه، ولا يمنعه عن أي مريض متى احتاجه.

وإن بعض المحسنين كانوا ينفقون على هذه المارستانات بسخاء، خاصة ما كان منها متوجهاً إلى بيت الله الحرام، ومن ذلك:

ـ خاتون السفرية المتوفية سنة ٥١٥ هـ وهي حظية السلطان ملكشاه، وأم ولديه محمد وسنجر، لها في كل سنة مارستان سبيل، يخرج مع الحاج، وتجهزه بكل ما يحتاجه[٣٨].

---

(٣٦)(٣٧) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٢٣ ـ ١٦٨

(٣٨) البداية والنهاية، لابن كثير: ١٢/ ١٨٩

وإن مظفر الدين كوكبوري ـ صاحب إربل ـ كان يقيم سبيلاً كبيراً للحاج، ويسير معهم كل ما تدعو إليه حاجة المسافر في الطريق، ويعهد به إلى أمناء، ومعه خمسة آلاف دينار، ينفقها على المحاويج من أهل الحرمين(٣٩).

كما كان الأتابكيون في الموصل (٥٢٠ ـ ٦٦٠ هـ) يجهزون عدة بيمارستانات لقوافل الحجاج التي تخرج من بلادهم. ومنها سبيل صاحب سنجار، الذي عهد به إلى أمير أمين، معه سبيل في صناديق، وإذا حطت القافلة، قعد الأمير في خيمته، ومعه الطبيب، فيقبل المرضى لمراجعة الطبيب، وأخذ العلاج منه(٤٠).

وفي سنة ٦٦٤ هـ سير الملك الظاهر ـ ملك مصر ـ سبيلاً إلى مكة، شرفها الله تعالى، وكسوة للكعبة الشريفة ـ على العادة ـ وكان أمير السبيل جمال الدين يوسف، نائب دار العدل، ومعهم هدايا كثيرة(٤١).

وفي سنة ٧٢٠ هـ حج العراقيون بسبيل ومحمل سلطاني، عليه من الذهب والجوهر ما قوم بمائتين وخمسين ألف مثقال(٤٢).

كان أبوسعيد بهادر خان من خربندة (٧١٧ ـ ٨٣٧ هـ) يرسل أكبر سبيل إلى بيت الله الحرام، ويذكر ابن بطولة في وصف أحدها، عندما سافر معهم من مكة إلى بغداد، ومما قاله:

« وفي هٰذا الركب نواضح كثيرة لأبناء السبيل، يستقون منها الماء، وجمال لرفع الزاد، للصدقة، وردع الأدوية والأشربة والسكر لمن يصيبه مرض، وإذا نزل الركب، طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة، تسمى الدسوت، وأطعم منها أبناء السبيل، ومن لا زاد معه، وفي الركب جملة من الجمال، يحمل عليها من لا قدرة له على المشي، كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه»(٤٣).

---

(٣٩) شذرات الذهب: ١٢٩/٥

(٤٠) دور العلاج والرعاية في الإسلام: ٣٣

(٤١) ذيل مرآة الزمان: ٣٤٦/٢

(٤٢) من ذيول العبر: ١١١

(٤٣) تحفة النضار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار: ١٠٧/١.

وآخر المحامل التي كانت تتوجه إلى بيت الله الحرام، ومعها الأطباء والعقاقير، لمعالجة من في المحمل، هما المحمل السوري، والمحمل المصري.

وفي أيامنا هٰذه ترسل الدول الإسلامية بعثات طبية مع قوافل الحجاج لمعالجتهم في السفر، وفي أيام الحج.

المستشفى المحمـــول

من الأعمال الحسنة التي وضعها المسلمون «البيمارستان المحمول» ـ المستشفى المتنقل ـ والفضل في هٰذا يعود إلى الوزير المصلح «علي بن عيسى الجراح» وزير الخليفة المقتدر بالله العباسي[٤٤].

كان من أجل الوزراء الذين خدموا الدولة العباسية، وحاول إصلاح الكثير من شؤونها، يحنو على الفقراء والمساكين، ويقدم لهم ما يريحهم، ويخفف بؤسهم.

فكر في «أهل السواد»، وما هم عليه من البؤس، وحاجتهم إلى المعالجة والإرشاد الصحي، فكتب إلى الطبيب سنان بن ثابت الحراني ما يأتي:

« فكرت فيمن يكون بالسواد من أهله، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى، لا يشرف متطبب عليه، لخلو السواد من الأطباء، فتقدم ـ مد الله في عمرك ـ بإيفاد متطببين، وخزانة من الأدوية والأشربة، يطوفون السواد، ويقيمون في كل صقع منه، ما تدعو الحاجة إلى مقامهم، ويعالجون فيه، ثم ينتقلون إلى غيره».

---

(٤٤) علي بن عيسى الجراح (٢٤٥ ـ ٣٣٤ هـ) من خيرة الوزراء العباسيين، كان صدوقاً ديناً عالماً محدثاً، يقول عنه الصولي لا أعلم أنه وزر لبني العباس وزير يشبهه، في عفته وزهده، وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه، كبير البر، ومن صلحاء الكرماء.

وكانت أعماله مضرب المثل في النزاهة والاستقامة، وحب الخير، وتدبير أموال الدولة، وإبطال مضايقة الناس، وتكليفهم بما لا يطيقون، وأفعاله كلها جيدة للغاية.

أنظر عنه:

تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء: ٣٠٥ ـ ٣٤٤، المنتظم ـ لابن الجوزي: ٣٥١ ـ ٣٥٥، الفخري: ٢٦٧ ـ ٢٦٨، تجارب الأمم: ١/١٤٧ ـ ١٨٥، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/٢٢١، شذرات الذهب، لابن العماد: ٢/٣٣٦

فكانت هٰذه المارستانات ترتاد الأصقاع النائية، والمحلات المنقطعة، يتفقدون المرضى، ويعالجونهم ويكون البيمارستان مجهزا بكل ما يلزم لمعالجة المرضى من أدوات، وعقاقير وأطعمة وأشربة، وأطباء، وصيادلة، وغلمان، يعملون بين أيديهم، ومضمدين يعنون بالمرضى، ومداراتهم، وكانوا يقيمون في كل بقعة ما تقتضيه المصلحة، يتفقدون المرضى والبائسيين: يجبرون المكسور، ويعالجون المصاب، ويرشدون الصحيح، ويكافحون الأمراض المتوطنة. ووقع إليه أيضا ما يؤكد عليهم التنقل في المحلات النائية فكتب إليه:

« ووصى بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة، والأمراض الفاشية، وإن لم يجدوا بدرقة - أمنا - توقفوا عن المسير، حتى يصح لهم الطريق، ويصلح السبيل، فإنهم إن فعلوا هذا، وفقوا أن شاء الله تعالى ».

فكان أول ظهور المستوصفات السيارة في العراق على عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣١٧ هـ).

مستشفى الجيش

وهي التي تكون مع الجيوش في حالتي حربها وسلمها، يكون فيها الأطباء والصيادلة والغلمان والعقاقير، وكل ما يلزم المريض من وسائل الراحة والمعالجة.

وقد قدمنا أن المرأة المسلمة كانت ترافق الجيوش، فتخرج في مواساة المرضى والجرحى وذلك في عهد الرسول ﷺ.

وأول مستشفى للجيش في الإسلام الذي اتخذه عبدالله بن الزبير، عندما حوصر في مكة المكرمة، فإنه ضرب فسطاطا من ناحية من المسجد الحرام، وكلما أصيب أحد من أتباعه بجرح ينقل إلى ذلك الفسطاط للمعالجة[٤٥].

وما زال الأمر في ازدياد وتحسن، حتى صار يستصحب الجيش أطباء، ومعهم صيادلة وعقاقير وغلمان، وكل ما يحتاجونه من آلات وأدوات، وخيام، ومحامل مريحة واسعة

---

(٤٥) الإمامة والسياسة: ٢/١٢.

مفروشة بالأثاث اللين، ينقل بها المرضى والجرحى، تحمل على الجمال. وأول من اتخذ هٰذه المحامل هو الحجاج بن يوسف الثقفي[٤٦].

وصار من مستلزمات الجيش أن يصحبه مارستان للمعالجة، ومن أشهر هٰذه المارستانات الكبيرة المارستان الذي وضعه شمس الملك بن نظام الملك.

جاء عنه: «ومن جملة مبتدعاته في الخير، أنه جعل للمعسكر السلطاني بيمارستانا يحمل أدواته، وأدويته، والأطباء، والغلمان، والمرضى مائتا بختي»[٤٧].

ومن هٰذه المارستانات المشهورة المارستان الذي في معسكر السلطان محمود السلجوقي المتوفىٰ سنة ٥٢٥ هـ وكان يعمل فيه الطبيب أبو الحكم عبيدالله بن المظفر بن عبدالله بن محمد الباهلي الحكيم المغربي (٤٨٦ ـ ٥٤٩هـ).

جاء عنه: كان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة، وكان الطبيب المارستان الذي كان يحمله أربعون جملا المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خَيَّم[٤٨].

وكان السيد أبو الوفا يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم، الذي صار قاضي القضاة ببغداد في أيام الإمام المقتفي، فاصدا وطبيبا في هذا البيمارستان. وكان أبو الحكم يشاركه ويعاني إصلاح مفرداته في التركيب والاختبار[٤٩].

فنجد في بيمارستان الجيش أكثر من طبيب واحد لمعالجة أفراده، وذلك يتوقف على كبر الجيش، فكلما زاد عدده أضافوا إليه أطباء وما يتبعهم.

ففي سنة ٦٠٤هـ كان الملك العادل قد تفقد جيشه، ورأى من المصلحة أن يزيد عدد أطبائه. فقال للصاحب بن شكر: نريد أن يكون مع الحكيم موفق الدين عبدالعزيز حكيم آخر، برسم خدمة العسكر، والتّردد إليهم في أمراضهم، فإن الحكيم عبدالعزيز ما يلحق لذلك. فامتثل أمره، وقال: ههنا حكيم فاضل في صناعة الطب، يقال له المهذب بن الدخوار، يصلح أن يكون في خدمة مولانا، فأمر باستخدامه[٥٠].

---

(٤٦) دور العلاج والرعاية في الإسلام: ٣١.

(٤٧) زبدة النصر في تواريخ آل سلجوق: ١٢٤.

(٤٨) نفح الطيب: ٧/١٥.

(٤٩) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٤٦.

(٥٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٢/٢٤٠.

وكانوا يتفقدون البيمارستان قبل سفر الجيش، ومن ذلك: في سنة ٦٢٢ هـ قبل أن يخرج الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أمر بتفقد المارستان، فوجدوا فيه نقصا سدوه بشراء بغلات وخيم وآلات لابد منها في السفر بعشرين ألف درهم[٥١].

مستشفى الإسعاف

كانوا يقيمون في الأماكن التي يكثر بها اجتماع عدد كبير من الناس في أوقات مختلفة كالجوامع ـ وقت صلاة الجمعة ـ وفي المهرجانات، والمجتمعات العامة، وفي الأماكن التي يعمل بها عدد من العمال، فيرسلون طبيباً، ومعه من يساعده في إسعاف من يصاب بأذى. وأول من كان له الفضل في هذا العمل الإنساني أحمد بن طولون والي مصر (٢٢٠ ـ ٢٧٠). ولما عمر جامعه في القاهرة سنة ٢٦٥ هـ، عمل في مؤخر الجامع ميضأة فيها جميع الشرابات والأدوية، وعليها خدم، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين وقت الصلاة.

وفي سنة ٦٢٣ هـ أرسل الملك الظاهر ـ ملك مصر ـ عمالاً لعمارة الحرم النبوي الشريف، وأرسل معهم مجير الدين أحمد بن الحسن بن تمام طبيباً. ومعه أدوية وأشربة؛ لطب لمن يعرض منهم.

---

(٥١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٢/ ٢٤.

ثالثاً ـ مستشفيات العزل

كرم الله الإنسان وفضله ﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[٥٢].

كفاه ذل المسألة والاستجداء إذا ما أصابته عاهة، أو طعن في السن، ولم يجد من يكفله، فجعل له من أموال الأغنياء نصيباً مفروضاً، تؤخذ من أموالهم، وتنفق على إخوانهم ـ وهي ليست بصدقة، وإنما هي حق معلوم، يزكي به ما أفاض الله عليه من الخير والبركة.

وإن المسلمين ـ بجانب هٰذا ـ تنافسوا في تشييد الملاجىء الخيرية للزمنىٰ والعميان، والمجانين والمقعدين، والأيتام، ومن لا معيل لهم، وأوقفوا لها الأوقاف المختلفة، التي تكفل النفقة على إدامة الملجأ، وعلى من فيه، من إقامة، ومعالجة، ورعاية وتثقيف، فيعدون لهم عيشة هادئة منعمة بعزٍ وكرامةٍ، يقضون حياتهم في رعاية إخوانهم الذين يحنون عليهم، هٰذا هو التكافل الاجتماعي الذي فرضه الإسلام على المؤمنين.

دور المجذومين

الـجُذام: من الأمراض السارية، كما أن منظر المجذوم يؤذي الناس، ويبعدهم عن مخالطته، والتعاون معه، وهو مما يسيء إلى المجذوم.

وكان الرسول ﷺ يتعوذ من هٰذا المرض، لما فيه من قذارة المنظر، ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام، وسيء الأسقام»[٥٣].

وحذر الناس من مخالطة المجذومين، ويقول في هذا: «فِرَّ من المجذوم كما تفر من الأسد»[٥٤] وإذا اضطر الإنسان إلى مكالمة المجذوم، فليكن على بعد منه. ويقول ﷺ «كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح»[٥٥].

---

(٥٢) سورة الإسراء: أية: ٧٠ ـ ٧١

(٥٣) جواهر البخاري: ٥٧٢

(٥٤) شرح الكرماني لصحيح البخاري: ٣/٢١، الطب النبوي: ١١٧

(٥٥) الجامع الصغير: ٩٥/١

ولما قدم وفد ثقيف لمبايعته ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان فيهم رجل مجذوم. أرسل إليه ـ عليه السلام ـ «ارجع فقد بايعناك»(٥٦).

وبينما كان الفاروق يطوف بالبيت رأى امرأة مجذومة. فقال لها: يأمة الله لا تؤذي الناس، لو جلست في بيتك، فجلست في بيتها(٥٧).

ولما كان الفاروق ـ رضي الله عنه ـ بالشام، مر بقوم مجذومين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن يجرىٰ عليهم ما يسد حاجتهم، رحمةً بهم، وحذراً من مخالطة الأصحاء بالسؤال فيعدونهم(٥٨).

وإن الخلفاء ومحبي الخير، شيدوا ملاجىء لهم، تكفل راحتهم وتبعد الناس عنهم. وأول من أمر بعزلهم في دور خاصة هو الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ)، فإنه اتخذ دوراً خاصة لزمنىٰ أهل الشام، وكساهم، وأجرى عليهم ما يحتاجونه، ومنعهم من مخالطة الناس وسؤالهم، وأعطى كل مقعدٍ خادماً وكل ضرير قائداً(٥٩).

واقتدى به الحجاج بن يوسف الثقفي، عامله على العراق، فاتخذ لهم دوراً خاصة بهم، وأجرى عليهم وعلى المساكين والعميان(٦٠).

وفي الدولة العباسية، زاد اعتناء القوم بالبؤساء، والمجذومين والعميان، أمر الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٧هـ) عامله على البصرة أن يعنىٰ بهم وبما يريحهم(٦١).

وكان الخليفة محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور (١٥٨ ـ ١٦٨هـ) من خيرة الخلفاء العباسيين الذين ساهموا بقسط وافر في الأعمال الخيرية: بتشييد الملاجىء، ودور الزمنىٰ،

---

(٥٦) الطب النبوي: ١١٧

(٥٧) تنوير الحوالك شرح على موطأ الإمام مالك: ٣٧١/١

(٥٨) البركة في فضل السعي والحركة: ٨٧ المستجاد من فعلات الأجواد: ١١، مختصر الدول: ٢٠٣، مآثر الإنافة: ٣ : ٣٤٦

(٥٩) لطائف المعارف: ١٨ ـ ١٩، تاريخ اليعقوبي: ٣٤١٢

(٦٠) كتاب الخراج، لأبي يوسف: ٩٦

(٦١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٣٤٢/٩
المستجاد من فعلات الأجواد: ٣٥٧

وذوي العاهات، والأرامل، والأيتام، والمنقطعين، وأن يتولى أمر العناية بهم أناس يشفقون على خدمتهم وتصريف أمورهم[٦٢].

كانت الدور بسيطة في أول أمرها، فكانوا يحجرون على ذوي العاهات، ويعنون بهم في أمر النظافة والطعام والكسوة. وعلى مر العصور صار بها أطباء مختصون بمعالجة الزمنى، وذوي العاهات، وقومه يتعهدون الإشراف عليهم ليلاً ونهاراً، يعاونهم الخدم في تدبير الأمور،

ولا ننسى فضل المحسن الكبير مظفر الدين كوكبوري[٦٣] ـ صاحب إربل (٥٤٩ ـ ٦٣٠هـ) وما له من الأيادي البيضاء في هٰذا الباب، وتشييد عدة ملاجىء، ودور زمنىٰ، في إربل وأنفق عليها بسخاء كبير.

بنى بإربل أربع دور للزمنى والعميان، وملأها بالمصابين، وقرر لهم بها كل ما يحتاجونه، يقدم إليهم كل يوم.

كان يتفقدهم بنفسه في عصرية كل اثنين وخميس. يدخل دورهم ويقف عليه شؤونهم المعاشية والصحية، وهو عمل إنساني جليل، يطلعنا على الروح السامية المحبة للخير والمواساة، وتخفيف ويلات المصابين، وكان يقدم إليهم كل ما يريحهم، ويزيل عنهم بؤسهم وشقاءهم.

وعلى هٰذا فقد عني المسلمون بأمر الزمنى والمجذومين ذوي العاهات ومعالجتهم، بدور خاصة، تكفل راحتهم، وتخلص المجتمع من العدوىٰ.

في هذا الوقت كان مثل هٰؤلاء البؤساء ـ في أوربا ـ لا يلاقون عوناً من قومهم ما يستحق الذكر، كان الأوربيون ينظرون إلى المصروع، والذي به بثور خبيثة، والمجذومين بأنه من الشياطين، فيوسعون المصاب ضرباً ولكماً، لكي يخرج الشيطان من جسمه، فإذا لم يشف المسكين من مرضه اعتقدوا أن شيطانه من أخبث الشياطين، وهنالك يقررون: أنه لا بد من عقابه عقاباً شديداً، وليس هٰذا العقاب إلا الحرق، ولكي يخرجوا هذا الشيطان

---

(٦٢) وفيات الأعيان: ١/٤٣٥ ـ ٤٣٧، شذرات الذهب: ٥/١٣٩

(٦٣) من أعلام الطب العربي: ٥٥ ـ ٥٦

الخبيث، كانوا يحرقون معه المريض السيىء الحظ، وهو تصوير دقيق لما كانت عليه العقلية الأوربية قبل عصر النهضة[٦٤].

ومن ذلك ما فعله الملك فيليب الجميل ملك فرنسا في سنة ١٣١٣م فإنه أمر بحرق جميع المجذومين؛ لكي يخلص الناس من شرهم، وهو فعل قبيح من فيليب الجميل[٦٥].

هٰذا ما كان يفعله المسلمون في معالجة البائسين، وما يفعله غيرهم من الأوربيين. فالمسلمون سبقوهم في العناية بأمر البائسين، واهتدوا إلى وصف أمراضهم، وحذروا الناس منهم وأنشأوا دوراً خاصة لعلاجهم، وتخفيف بؤسهم وشقائهم.

دور المجانين

عالج المسلمين مرض الجنون، معالجتهم الأمراض الطبيعية، في الوقت الذي كان الأوروبيون فيه يعدون الجنون من إصابات الأرواح الشريرة، كالجن والشياطين، ويسمونه: بالمرض الشيطاني، وعالجوه بالبخور والسحر والشعوذة والرقى، وغير ذلك من الأمور البعيدة عن العلم، التي تزيد من شقاء المصاب.

أما المسلمون، فإنهم عالجوا المصابين، بطرق مبنية على دراسات دقيقة، فأبدعوا في معالجتهم، يدرس الطبيب نفسية المصاب، وأسباب إصابته، فقد تكون عن حب أو خوف أو فقر، أو قلق نفسي، ثم بعد هذا يعالجونه بما يرونه يخفف عنه بؤسه، بالعقاقير والرفق واللين، وطيب الكلام، وحسن المداراة وتلبية مطالبهم، مع الاعتناء بنظافتهم، وتأمين راحتهم في اختلاف مرافق العيش، بدور يرتبونهم فيها، يشرف عليهم أطباء وخدم، كما كان هذا في مستشفى القاهرة الذي شيده صلاح الدين الأيوبي. وقد شاهده ابن جبير وقال عنه[٦٦]: «يتصل بالموضوعين المذكورين، موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير، عليها شبابيك الحديد، اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها، والمثابرة عليها غاية التأكيد».

---

(٦٤) دور العلاج والرعاية في الإسلام: ٢٧

(٦٥) دور العلاج والرعاية في الإسلام: ٢٧

(٦٦) رحلة ابن جبير: ١٩ ـ ٢٠

ومن طرقهم في معالجة المصابين بالجنون، أنهم كانوا يخففون عنهم مرضهم فيشغلونهم بأعمال بسيطة مسلية، فيها شيء من الدقة والاعتناء، فاستغراق المصاب في مثل هذا العمل وانصرافه إليه، ينسيه ما قد أصابه من هم وحزن، ويعيد إليه ثقته بنفسه، فيرى أنه لم يزل قادراً على العمل المنسق، فتعود إليه قواه العقلية بصورة تدريجية، على مر الأيام، وينسى ما كان قد علق بفكره من الوساوس والأمراض.

وطببوا المصابين أيضاً بالموسيقا والأغاني، التي تخفف حزنهم، وتنعش نفوسهم، وتبعث فيهم المرح والسرور، فتنسيهم مصائبهم التي أودت بهم إلى هذا الحال. وممن اشتهر بالتطبيب في الموسيقا الطبيب المشهور أبوبكر الرازي[٦٧] ويعقوب بن إسحاق الكندي[٦٨].

وبعضهم كان يخفف عن المصابين بسبب الحب، بأن يأتوا إليه بمن أحبه، لعل في محادثته معه ما يخفف عنه وجده وشوقه، ومن ذلك ما ذكره ابن جبير عن أحد المصابين الذي كان بدار المجانين في دمشق، فقال: «ومن أعجب ما حدثت به من ذلك أن رجلاً، كان يعلم القرآن، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد، ممن أوتي مسحة جمال، واسمه نصر الله، وكان المعلم يهيم به، فزاد كلفه، حتى اختبل وأدّى به إلى المارستان، واشتهرت علته وفضيحته بالصبي، وربما كان يدخله أبوه إليه، فقيل له: اخرج وعد لما كنت عليه من القرآن. فقال متماجناً تماجن المجانين: وأي قراءة بقيت لي؟ ما بقي في حفظي من القرآن سوى ﴿إذا جاء نصر الله﴾ فضحك منه، ومن قوله»[٦٩].

ومن طرقهم الطريفة في معالجة المصابين بالجنون، التطبب بالوهم، فإن كلام الطبيب الحاذق ذي الشخصية القوية له أثر كبير في نفسية المريض. فالكلام الهادىء الجميل لا يقل عن تأثير العقاقير في شفاء المريض.

وعلى هذا كان للتطبيب بالوهم نتائج حسنة، في شفاء المصابين بالجنون والماليخوليا، والقلق النفسي.

والقصة التالية، التي قام بها الطبيب وحيد الزمان ـ ٥٦٠ هـ مع شخص مصاب

---

(٦٧) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٧٨ ـ ١٨٢، من أعلام الطب العربي: ٦٣.

(٦٨) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٤٦.

(٦٩) رحلة ابن جبير: ٢٣٣.

بالوسوسة والماليخوليا، توضح لنا بعض الطرق الحكيمة التي كانوا يقومون بها في معالجة المصابين:

أصيب شخص بهذا المرض، وأعتقد أن على رأسه دناً، فكان يتحايد الجدران، ويتجنبْ الأماكن المزدحمة، خشية أن يصاب بصدمة فينكسر الدَّن الذي كان يتوهم أنه على رأسه، واستعصى شفاؤه على كثير من الأطباء.

فجيء به إلى الطبيب وحيد الزمان، وبعد أن حادثه مدة أعلمه أنه يتمكن من إزاحة الدن من علي رأسه، أوصى وحيد الزمان غلاماً له أن يصعد على السطح، ومعه دن. وأوصى غلاماً آخر إذا ما تحادث الطبيب مع المصاب، وأشار إليه، أن يسارع بخشبة كبيرة معلّة فيضرب بها قرب رأس المريض بشدة، مهدداً للمريض بكسر الدن، وفي الوقت نفسه يرمي الغلام الأول الدن الذي معه فوق السطح، ففعلا كما أمرهما، وسقط الدن وانكسر قطعاً، فلما عاين المريض هذا ندم على كسر الدن، وسري عنه ما كان يعتقده[٧٠].

وفي أخبار الأطباء قصص عما قاموا به من طرق حكيمة، عالجوا بها المصابين بالأمراض العقلية.

عنوا بصحتهم، ونظافة أجسادهم ومسكنهم، والإنفاق عليهم بما يخفف عنهم بؤسهم وشقاءهم، فلم يتركوهم وسط الأوساخ والأقذار، ولم يعذبوهم بالضرب والجلد، أو يحرقوهم تخلصاً منهم، ومن الشياطين الذين كانوا يعتقدون بأنهم سبب جنونهم ـ كما كان عليه الحال ـ إذ ذاك في بلاد أوروبا.

(٧٠) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/ ٢٧٩.

رابعاً ـ الملاجيء الخيرية

دور العجزة

من الملاجيء الخيرية، دور العجزة والمقعدين، الذين لا معيل لهم في تصريف أمورهم، والعناية بصحتهم، وتأمين راحتهم في العيش والسكن.

نرى في عصرنا هذا عدة جمعيات خيرية، يقوم أعضاؤها بتفقد العجزة والمقعدين وذوي العاهات، وما يحتاجونه من طعام ومسكن وعلاج، وغير ذلك من تدبير أمور العيش.

هذا ما نجده عند المسلمين منذ عدة قرون، عز عليهم أن يروا هؤلاء البائسين في حالة مزرية، يسألون الناس ما يحتاجونه، وقد كانوا من العاملين في خدمة المجتمع، فقدموا إليهم كل مساعدة، وسهلوا لهم تدبير معيشتهم، وأراحوهم من عناء الفقر والفاقة.

شيدوا لهم الدور لسكناهم، وأوقفوا لها كل ما يحتاجونه بما يزيل وحشتهم، وينعش أنفسهم، ويرفه عيشهم، وسهلوا لهم كل صعب.

وأول من نراه يهتم بأمر العجزة الخليفة عمر بن الخطاب: رأى شيخاً يهودياً يتسول، ففرض له من بيت المال[71]، كما أن خالد بن الوليد رفع عنهم الجزية، وحث على إعالة العاجز منهم، ما دام في دار الإسلام[72]، وكانوا يعطون من صدقة الفطر للرهبان[73].

وأول من جمعهم في دور للعناية بهم الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ) فقد عز عليه أن يراهم يتكففون في الطرقات، فسد عوزهم، وخصص لكل مقعد خادماً يكون في خدمته، وأعطى كل أعمى قائداً يعينه في تنقله، ويشرف على العناية به.

وكان عمر بن عبدالعزيز من أسبق الناس إلى فعل الخيرات، وتقديم المبرات، فكتب إلى أمصار الشام أن يعطوا كل أعمى قائدا، ولكل اثنين من المقعدين خادماً[74].

---

(٧١) كتاب الخراج، لأبي يوسف: ١٥١

(٧٢) مجموع الوثائق السياسية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين: ٢٩٢

(٧٣) الأموال، لإبن سلام: ٦١٣ ـ ٦١٤

(٧٤) سيرة عمر بن عبدالعزيز: ١٥٥

وبنى الخليفة المأمون (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) في المدن الكبيرة دوراً خاصة للعميان والنساء العاجزات.

ومن أشهر المحسنين الذين عنوا بالعجزة والمقعدين والأيتام والأرامل مظفر الدين كوكبوري (٥٤٩ ـ ٦٣٠ هـ) صاحب إربل، وله أيادي بيضاء في هذا الباب، وما أنشأه من دور مختلفة، وما فيها من تسهيلات لمن فيها.

دور الأيتـام

وفي القرآن الكريم آيات عديدة تحث على رعاية الأيتام وتربيتهم وتعليمهم، وتوجيههم إلى الحياة العملية، وهذا من التكافل الاجتماعي.
يقول الرسول ﷺ «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً»[٧٥].

فرعاية اليتيم من أفضل الأعمال التي تقرب العبد من ربه، وعلى هذا نجد المسلمين من أسبق الأمم في إنشاء المعاهد الخيرية الخاصة بحضانة الأطفال والملاقيط، وإيواء الأيتام وأبناء المعوزين، وشيدوا لهذه الأعمال معاهد تكفل لمن فيها الرعاية التامة، والإشراف على صحتهم وراحتهم، ومن هذه المعاهد:

١ ـ **دور الحضانة (دور المراضع)**: وهي للأطفال الذين فقدوا أمهاتهم، ولم يكن لهم من يتولى إرضاعهم ورعايتهم، ويكون معهم الملاقيط.

لم تكن دور الحضانة معلومة في صدر الإسلام، وكان المحسنون يعهدون بالطفل إلى مرضعة تتولى حضانته وإرضاعه ومداراته، وهم ينفقون على الطفل والمرضعة حتى يبلغ سن التعلم.

وأول من وقفنا عليه نظم دور الحضانة للملاقيط والأيتام هو أحمد بن طولون صاحب مصر، جمعهم في دار، وأوكل إليهم من يحنو عليهم بالرضاعة والمداراة، والإشراف على صحتهم[٧٦]، ثم انتشرت هذه الدور في المدن الإسلامية.

---

(٧٥) جواهر البخاري: ٤٤٦

(٧٦) العقد الفريد للملك السعيد: ٩١

وممن عرف بهذا العمل الجليل المحسن الكبير مظفر الدين كوكبوري صاحب أربل[٧٧]، كان له الفضل في ترتيب دار خاصة واسعة لإيواء الملاقيط والأطفال الأيتام، وتخصيص مراضع مقيمات في الدار، ورتب فيها قومة وخدماً يتعهدون من في الدار، وطبيباً يشرف عليهم، وجهز الدار بكل ما يريحهم من أثاث ولوازم.

وبلغ من اهتمامه بأمر الأطفال أنه كان يدخل الدار كل يوم، ويتفقد بنفسه أحوالهم، فيقف عند كل طفل منهم، يلاطفه ويسأله عن حاله وراحته، وما يشتهيه من الطعام، وما يرغب فيه من الثياب والألعاب، وكان يأمر بإحضار كل ما يشتهيه اليتامى في الحال، وبلغ من شفقته بهم وحبهم له أنه كان إذا دخل الدار تسارعوا إليه، والتفوا حوله، أو تعلقوا به، وهو يداعبهم ويسألهم عن كل ما يرغبون به.

كما كان يتفقد بنفسه طعامهم وثيابهم ومنامهم والعناية بهم، فيجزل العطاء للمرضعات والممرضات اللاتي يبذلن عناية خاصة بالأطفال، حتى ذكروا أن نفقته على هذا العمل الخيري بلغت مائة ألف دينار في السنة، ويبقى الأطفال في الدار إلى أن يبلغوا سن التعلم، ثم ينقلون إلى مكاتب السبيل، فينفق فيها على تعليمهم وتوجيههم إلى حرفة أو عمل يعيشون بمزاولته.

٢ ــ **مكاتب السبيل**: وأقدم مكتب بني للأيتام هو الذي أسسه يحيى البرمكي، في القرن الثاني للهجرة، فيكون اليتيم مكفولاً فيه في النفقة والتعلم والتوجيه[٧٨].

ثم ازدادت هٰذه المكاتب في البلاد الإسلامية، حتى صار في بعضها عشرات المكاتب، كما كان في بغداد والقاهرة والشام والأندلس وغيرها، فالطالب مكفول في معيشته ولوازمه وتعليمه وتوجيهه إلى العلم، أو مهنة تضمن له معيشته، وممن اهتم بأمر هٰذه المكاتب نور الدين الشهيد (٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ)، فإنه بنى عدة مكاتب للأيتام والمعوزين وأجرى عليهم وعلى من يعلمهم كل ما يحتاجون[٧٩].

كما بنى صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ ـ ٥٨٩ هـ) عدة مكاتب في بلاده للأيتام ولأبناء المعوزين[٨٠].

---

(٧٧) وفيات الأعيان: ١/٤٣٥ ـ ٤٣٧

(٧٨) الخدمات الاجتماعية لطلاب العلم في الإسلام: ١٢

(٧٩) وفيات الأعيان: ٢/٧٨ ـ ٨٩

(٨٠) دور العلاج والرعاية في الإسلام: ٤٠ ـ ٤١

على أن هٰذه المكاتب كانت تستوعب المئات من الطلاب، كما كان هٰذا في مكتب السلطان حسن، صاحب مصر، في القرن الثامن للهجرة[81].

أما البنات، فيعهد بأمرهن إلى دور خاصة يعلمن أمر دينهن، والأعمال الزوجية، فإذا بلغن سن الزواج زوجن بمن يضمن لهن حياة زوجية سعيدة، وبلغ من اهتمام الناس بأمر البنات والحرص على صيانتهن بالزواج، أن بعض المحسنين خصصوا أوقافاً على تجهيز البنات اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن، فتجهز من الأوقاف المرصدة لهذا العمل الإنساني الجليل[82].

الرباطات

ومن الملاجىء الخيرية في الإسلام كثرة الأربطة للرجال والنساء، وهذه الأربطة: دور علم وعبادة، وإرشاد وتهذيب، ودور مواساة لكل مقعد أو عاجز لا يتمكن من العمل، وليس له من معيل، يجد في الرباط أحسن عناية وراحة.

كثرت الرباطات في الإسلام بعد القرن الثالث للهجرة. والأربطة الخاصة بالرجال أكثر منها ما كان للنساء وأخبارها مستفيضة.

نجد في الأربطة الخاصة للنساء من الأنظمة الدقيقة ما يصونها ويكفل تعليمها وتهذيبها، وإصلاح ما اعوج من خلق بعضهن، وإرشادهن إلى طريق الهداية والصلاح.

يشرف على الرباط شيخة عالمة عاقلة مدبرة، تعلمهن وترشدهن، وفي الرباط كل ما يريهن من طعام وثياب ومعالجة وترفيه، فهي دور مواساة وعبادة وتهذيب.

ومن الأربطة التي وقفنا عليها:

١ ــ **رباط الحجازية**: أنشأته السيدة فوز جارية علي بن أحمد الجرجرائي، بجوار مسجدها في القاهرة، وأسندت مشيخته إلى أم الخير الحجازية الواعظة، ومن الخيرات

---

(٨١) دور العلاج والرعاية في الإسلام: ٤٠ ـ ٤١

(٨٢) تحفة النضار في غرائب الأمصار: ١/٦٣

العابدات، كانت تتصدر حلقات الوعظ والتدريس في جامع عمرو بن العاص، حوالي سنة ٤١٥ هـ[٨٣].

٢ ـ **رباط الأندلسي**: أنشأته السيدة علم الآمرية ابنة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ٥١٦ هـ، بجوار مسجدها في القاهرة، وجعلته لإقامة الأرامل والمنقطعات والعجائز، وخصصت لهن ما يكفلهن ويريحهن[٨٤].

٣ ـ **الرباط الذي أسسه الخليفة المستعصم بالله العباسي سنة ٥٦٢هـ**. كان للنساء المحتاجات والعاجزات، وجعل مشيخته الشريفة بنت المهتدي تتولى تعليمهن وإرشادهن[٨٥].

٤ ـ **رباط البغدادية في القاهرة**: وهو من الرباطات الكبيرة، أنشأته تذكار باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤هـ، وجعلت مشيخته الشيخة الصالحة زينب بنت أبي البركات المعروفة بالبغدادية، ومعها عدد من النساء الخيرات التقيات تساعدنها في إدارته وتهذيب من فيه بالوعظ والإرشاد، وتوفير الراحة، وكان للنساء اللاتي طلقن أو هجرن ولا معين لهن حتى يتزوجن[٨٦].

---

(٨٣)ـ(٨٦)تكلمنا هذه الأربطة وغيرها في كتابنا «دور العلاج والرعاية في الإسلام»، ص ٤٣ ـ ٤٥، وانظر أيضا عنها «خطط المقريزي»: ٤/٢٩٤ ـ ٣٧٨، الحوادث الجامعة: ٢٧٤.

الفصل السابع
سلوك الطبيب

التطوع في معالجة المرضى

أن يوقف الطبيب نفسه في معالجة أفراد المجتمع، في تخفيف آلامهم، والترفع عن المادة، فنجد بعضهم كان يتطوع في معالجة الفقراء، يزورهم في منازلهم، ويدقق فحصهم، ثم يقدم لهم العلاج من عنده.

ـ فالطبيب محمد بن زكريا الرازي ـ ٣١١ هـ كان بارا بالناس، حسن الرأفة بالفقراء والاعِلّاء، يجري عليهم الجرايات الواسعة، ويمرضهم[١].

ـ يحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب البغدادي ـ ٤٧٣ هـ، كان يطب لأهل محلته، وسائر معارفيه بلا أجرة ولا جعالة، بل احتسابا ومروءة، ويحمل إليهم الأدوية بغير عوض، وبعد وفاته أوقف كتبه في مشهد الإمام أبي حنيفة[٢].

ـ أسعد بن المطران الطبيب ـ ٥٨٧ هـ: كان نصرانيا وأسلم، كان غزير المروءة حسن الأخلاق، يعود المرضىٰ من الفقراء، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية من عنده، حتى أجرة الحمام[٣].

ـ كمال الدين الحمصي (أبومنصور المظفر بن علي بن ناصر القرشي ـ ٦١٢هـ): كان يتردد إلى البيمارستان النوري الكبير، ويعالج المرضى احتسابا[٤].

ـ الموفق خطيب آدفو (محمد بن الحسين ـ ٦٩٧هـ): له كرم وفتوة، كان يمشي إلى الضعفاء والرؤساء يطبهم بغير أجرة، فكان عنده الفقراء والضعفاء والرؤساء سواء[٥].

زين الدين بن عبدالقادر بن الشيخ شمس الدين بن محمد القويضي الدمشقي ـ ٩٤٧هـ: يزور المرضى الفقراء في دورهم، ويعالجهم، ويقدم لهم الدواء[٦].

---

(١) الفهرست لابن النديم: ١٤٦، أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٧٩.

(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٣) شذرات الذهب، لابن العماد: ٤/٢٨٨.

(٤) عيون الأنباء بطبقات الأطباء: ٢/٢٠١.

(٥) الوافي بالوفيات، للصفدي: ٣/٢١ ـ ٢٢.

(٦) معجم الأطباء، لأحمد عيسى بك: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

ومنهم من كان يوقف العقاقير والمعاجين، تقدم إلى الفقراء والمساكين تقربا إلى الله تعالى. مثل:

ـ أحمد بن يونس الحراني ـ ٣٥١هـ: رحل إلى الأندلس، وتولى إقامة خزانة بالقطر للطب، لم يكن قط مثلها، ورتب لها اثني عشر صبيا صقالبة طباخين للأشربة، صانعين للمعجونات، واستأذن أمير المؤمنين المستنصر الأموي، أن يعطي منها من احتاج على المساكين والمرضى، فأباح له بذلك، وكان يواسي بعلمه صديقه، وجاره، ورجلا مسكينا، وضعيفا[٧].

ـ وجيه الدين التكريتي ـ ٦٧٠ هـ: جاء عنه: كان عنده بر بالفقراء، ويعمل في كل سنة من المعاجين والأكحال ما يغرم عليه جملة كبيرة، ويفرقه للثواب[٨].

وأدركنا في زماننا هٰذا أن بعض الرجال والنساء يعدون أنواعا من الأدوية والأعشاب الطبية، التي تصلح للمعالجة، ويقدمونها للمرضى طلبا للأجر.

كما أدركنا بعض الرجال يعانون التجبير والخلع تطوعا، يقصدون المريض ومعهم اللفائف والمواد التي يجبرون بها الكسور، يسعفونهم، ويترددون إلى المريض، يتفقدون حالته، حتى يشفى، ومنهم:

الحاج أحمد أفندي بن قاسم أغا الجليلي ـ ١٣٧٤ هـ: ورث هٰذا عن أجداده فكان ـ على كبر سنه ـ يقصد المكسور في داره، ويقوم بتجبيره طلبا للثواب، ولم يزل في الموصل من يعاني التجبير تطوعاً لله واحتساباً. وأبوابهم مفتوحة للناس.

كما أن بعض الأطباء المسلمين يعالجون المرضى يوم الجمعة تطوعا لله.

وما يكون عليه الطبيب

طلق الوجه، جميل المنظر، حسن الهيئة، كامل الخلقة، نظيف الثياب، طيب الرائحة، يسر الناظر إليه، عفيف النظر، سليم القلب، صادق اللهجة.

---

(٧) طبقات الأطباء والحكماء: ١١٢ ـ ١١٣.

(٨) ذيل مرآة الزمان: ٨٢/٣.

وأن يكون: جيد التصوير، قوي الحدس والتخمين، صبوراً على التعب والنصب في درك الحق من الأمور، متحملاً ما يسمعه من المريض.

متمسكا بدينه، واقفا عند حدود الله، يعالج الناس كلهم سواء، لا فرق بين الغني والفقير، صادقا في قوله وفعله وشهادته، كتوما لما يعلمه، ويقف عليه من أمر المريض.

أن يكون مترفعا عن المال، يكون طبه لخدمة المجتمع، وتخفيف آلامه، لا لجر المغنم، لا يقبل الارتشاء، ولا يجعل من دوائه شرا ما، ينوي الخير للناس كافة ويعلم أنه وسيلة للشفاء، وأن الله واهب الحياة، هو الشافي وحده ولا يدعي الفضل فيما يوفقه الله إليه، يحمد الله على توفيقه فيما يقوم به.

يطب بما يعلمه، ويتجنب مالا يعلمه، وإذا تطببت فاتق الله، واجتهد أن تعمل بحسب ما تعلمته علما يقيناً، فإن لم تجد فاجتهد أن تقرب منه، وإذا كان غير عارف بدوائه أن لا يكتب شيئاً من الأدوية لما في ذلك من إضاعة المال وضرر المريض.

يلازم المطالعة والتتبع، يجرب ما يذكره من تقدمه من الأطباء ومعاصريه، يدون ملاحظاته وما قام به من تجارب؛ ليستفيد منها غيره، وعليه أن ينصرف ما أمكنه في البحث والتتبع، وهو ما يوجبه عليه عمله، وأن يكون دستوره ﴿وقل رَبِّ زدني علماً﴾.

وإذا عسر عليه أمر، رجع إلى أساتذته ومشائخه واستشارهم، وربما عندهم مالم يهتد إليه، ومن طب بما لم يعلم فهو آثم وضامن لما فرط به.

على أن بعضهم كان يجمع عدة أطباء في فحص المريض إذا عسر عليه الوقوف على مرضه، ويتداول معهم ما يرونه من أعراض المرض، وما يقترحون من علاج.

يلبي داعي المريض في أي وقت، ويدقق أعراض مرضه في كل ما يعرض له، ويسأل المريض عن مرضه ونومه وطعامه وما يرتاح له، ويكثر الاستفهام منه عما يبدو له، ويسأل من يقوم بالإشراف على خدمة المريض، إذ ربما عجز المريض عن بسط أحواله، أو نسي بعضها.

التخفيف عن المريض بكلام طيب ووجه باش، ويهون عليه ما يجده في نفسه، ويبعث في نفس المريض الأمل في شفائه «إذا دخلتم على المريض فنفسوا له بالأجل»[٩]، فإن ذلك لا يغير شيئا.

---

(٩) الطب النبوي، للذهبي: ١٤٥.

يستقصي اعراض المرض قبل إعطاء العلاج: ينظر قارورة البول، يجس نبضه بدقة واعتناء، يدقق أعضاءه التي يشكو منها، وبعد أن يقف على المرض وأسبابه يتجنب إعطاء الدواء ما أمكنه ـ إذا أمكن أن يستغني عنه بالغذاء والنزهة والرياضة.

وإذا أعطى الدواء فليتجنب الدواء المركب، ويستغني عنه بالدواء البسيط قدر الإمكان، ينظر إلى السن والفصل والبلد، ولا يعطيه مالا يتحمله ولا يلائمه، مع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات والأوقات.

ولا يأمر باستعمال دواء، ولا ما يستغرب من غذاء، حتى يحقق حقيقته، ويعرف جديده من عتيقه، فيقف على مقدار قوته بالفعل.

وبعد أن يتأكد من مريضه بصورة متقنة، يقدم على إعطاء الدواء، قال عليه الصلاة والسلام: «ولا تداوي أحداً حتى تعرف داءه»[١٠]، وأكثر ما يؤتى الطبيب عن عدم فهمه حقيقة المرض واستعجاله في ذكر ما يسعفه، وعدم فهمه مزاج المريض.

بعد هٰذا كله، يرتب له قانوناً فيما يجب أن يسير عليه من الأشربة والعقاقير، ويسلم نسخة منه لأولياء المريض بشهادة من حضر معه.

يعود المريض يوم بعد يوم أو أكثر، ويتفقد حالته، وهل نفعه الدواء الذي وصفه له، ويسأل المريض عما يجده في نفسه، فإن تماثل إلى الصحة أقره عليه، وإلاّ كتب له نسخة غير هذا ـ إن رأى أن الأمر يحتاج إليه، وهكذا يستمر معه في الإشراف على معالجته حتى يبرأ أو يموت.

فإذا بريء أخذ أجرته وكرامته، وإن مات، وشك أولياء المريض بما وصفه الطبيب، حضر أولياؤه عند الحكيم المشهور ـ رئيس الأطباء أو غيره ـ وعرضه عليه النسخ التي كتبها الطبيب، فإن وجدها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب، أعلمهم وأقره على عمله.

وإن رأى الأمر خلاف هٰذا قال لهم: «خذوا دية صاحبكم من الطبيب، فإنه هو الذي قتله». وهذا هو الطب الشرعي المعمول به في عصرنا. قال عليه الصلاة والسلام: «من

---

(١٠) من وصيته عليه الصلاة والسلام للشمردل بن قباب الكعبي النجراني، وقد تقدم الكلام عنه.

يطبب ولم يكن بالطب معروفا، فأصاب نفسا فما دونه فهو ضامن»[١١].

ومن واجب الطبيب أن يبذل النصح للمريض، فإذا رأى علامات الموت لم يكره أن ينبه على الوصية بلطف من القول.

وليحذر الطبيب المجبّر العبث بالأعضاء الدقيقة عند قيامه بتجبير عضو ما، كما على الطبيب أن يحذر العبث بالجراح، إذا لم يستدع له مجسة الطعنة، قال عليه الصلاة والسلام: «مجسة الطعنة إذا اضطررت»[١٢].

وعلى الأطباء أن يعانوا ما هم مختصون به، كل بحسب علمه، وأن يكون مع المجبر والجراح ما يحتاجه من أدوات للمعالجة، عالماً بدقائق الأعضاء.

وليعلم الأطباء أنهم مراقبون من صاحب الحسبة عن كل عمل يقومون به، ومن رئيس الأطباء أو من يفوض إلى الخليفة امتحان الأطباء للتأكد من علمهم ومهارتهم فيما يقومون به.

وليحذر الأطباء من إعطاء كل دواء يضر الجسم كالسم، قال عليه الصلاة والسلام: «ولا تجعل من دوائك شرًّا ما[١٣]،ولا ما يسقط الجنين، والدواء الذي يقطع النسل. . . الخ[١٤].

---

(١١) الطب النبوي، للذهبي: ١٠٩.

(١٢) من وصيته عليه السلام للشمردل.

(١٣) من وصيته عليه السلام للشمردل.

(١٤) انظر عن هذا الباب:

١ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، للشيزري: ٨٩ ـ ١٠٢.

٢ ـ معالم القربة في أحكام الحسبة، لابن الإخوة: ١٥٩ ـ ١٦٩.

٣ ـ التعريف بالمصطلح الشريف، لابن فضل الله العمري: ١٣٨ ـ ١٤٠.

٤ ـ معيد النعم ومبيد النقم، للسبكي: ١٣٣ ـ ١٣٤.

٥ ـ وللدكتور محمود الحاج قاسم محمد بحث قيم، نشره في مجلة المجمع العلمي العراقي ـ الجزء الثاني، من المجلد الرابع والثلاثين، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

الفصل الثامن
مراقبة الأطباء والصيادلة

١ ـ الحسبة

من الوظائف المهمة في الإسلام نظام الحسبة: يعهد به إلى المحتسب، يعاونه عدة أشخاص، ويشترط به أن يكون عالماً بأحكام الشريعة، حسن الأخلاق، عفيفاً، رفيقاً بالناس، يقوم بما فيه نفع المجتمع، ويقوم مساعدوه بتفقد مرافق الأعمال كافة في المجتمع، وينهون إليه ما يحتاج إلى تنبيه أو إصلاح، ومن ذلك: يفتشون الصيادلة والأطباء والمارستانات، وما يقومون به، يراقبون أعمالهم بدقة وأمانة، يرشدون المخالف إلى الطريق السوي، وإلا عاقبوه، ومنعوه من مزاولة العمل.

يفتش الفصّادين والحجّامين، ويتفقد آلاتهم التي يستعملونها من حيث النظافة، ودقة الآلة، وطريقة استعمالها. وما على الفصّاد والحجّام أن يعلمه من الأعضاء الدقيقة، فلا يؤذيها، وغير ذلك مما هو مفصل في كتب الحسبة.

ويتفقد الأطباء والكحّالين والمجبّرين والجراحيين، ويمتحن من يشك بعمله، وإتقانه طرق المعالجة، كما يدقق الآلات التي يستعملونها، ودرجة إتقانهم لأعمالهم في الفحص، وتشخيص المرض، وإجراء العمليات الجراحية في التجبير.

يفتش الصيادلة، ويختبرهم ليقف على درجة علمهم، ويتفقد العقاقير التي يبيعونها، خشية أن تكون مغشوشة، ولمن يبيعونها، وأسعارها:

فالحسبة نظام دقيق يخضع له كل ذي صنعة أو عمل، مهما كان نوعه، فهو معرض للتفتيش والمحاسبة وتدقيق عمله وغير ذلك[1].

والمارستان من المواقع المهمة التي كان يتفقدها صاحب الحسبة وأعوانه، يتفقدون نظافة المكان، وثياب المرضى، وجودة الطعام، وحسن طبخه، وتحضير الأدوية، وحسن مداراة المرضى، وقيام من فيه بواجباتهم بدقة وأمانة وإخلاص وعناية بالمرضى.

وإن بعض أصحاب الوقف كانوا يقومون بأنفسهم في تفتيش المارستان، والوقوف على سير العمل فيه، وراحة المرضى، وما يطلبونه، أو يشكون منه، ومن ذلك:

---

(١) أنظر عن هذا: معالم القربة في أحكام الحسبة: ١٥٩ ـ ١٦٩، نهاية الرتبة في طلب الحسبة: ٨٩ ـ ١٠٢ ففيهما أبحاث عما يقوم به المحتسب في مراقبة الأطباء والصيادلة، وما له علاقة في أعمالها.

كان أحمد بن طولون يركب بنفسه في كل يوم جمعة، يتفقد خزائن المارستان وما فيها، والأطباء، وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين، والمحبوسين من المجانين، وغير ذلك[٢].

وذكر ابن جبير الذي زار مارستان صلاح الدين في القاهرة وما فيه فقال: «ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم، ويقابلها بما يصلح لها. والسلطان؛ أي صلاح الدين الأيوبي، يتطلع هٰذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها، والمثابرة عليها غاية التأكيد[٣].

وجاء عن أمير المؤمنين المنصور أبي يوسف يعقوب الذي شيد بيمارستان مراكش: كان في كل جمعة، بعد صلاته، يركب ويدخله، يعود المرضى، ويسأل عن أهل بيت، أهل بيت، ويقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمراً على هٰذا إلى أن مات رحمه الله في شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ[٤].

وكان الأمير الكبير جمال الدين آقوش الأشرفي - ٧٣٦ هـ، في أثناء توليته نظر البيمارستان المنصوري، يحسن إلى المرضى، ويتفقد أحوالهم في الليل، ويتنكر، ويدخل إليهم قبل الفجر، ويسأل الضعفاء عن سائر أحوالهم، حتى عن الفراش والطبيب.

ويدخل إلى مارستان المجانين، ويباشر أحوالهم بنفسه، ويتحدث معهم، ولا يغفل عن مصلحة تتعلق بمباشرته[٥].

ولا ننسى فضل المحسن الكبير مظفر الدين كوكبوري - ٦٣٠ هـ، وما كان يقوم به من تفقد المرضى والمقعدين والأيتام والأطفال، ويأمر بتصريف كل ما يحتاجون إليه.

٢ ـ وإن الخلفاء وأرباب الحكم كانوا يعنون بمراقبة من يزاول مهنة الطب والصيدلة، والوقوف على درجة علمهم، وما يقدمونه للمرضى من عقاقير وعلاج، فيأمرون باختبارهم، ويمنعون من لا خبرة له من مزاولة العمل. ومن ذلك:

١ ـ ما أمر به المأمون في اختبار الصيادلة: فإنه سأل يوسف لقوه الكيميائي عن رأيه فيما يقدمه الصيادلة من عقاقير إلى المرضى. فأجابه: إن الصيدلاني لا يطلب منه إنسان

---

(٢) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٧٠

(٣) زار ابن جبير القاهرة سنة ٥٧٨ هـ - أنظر: ص: ٢٠ من رحلته

(٤) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٢٨١

(٥) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٩٥

شيئا من الأشياء ـ كان عنده أو لم يكن ـ إلا أخبره أنه عنده، ودفع إليه شيئا من الأشياء التي عنده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يضع اسما من الأسماء لا يعرف، ويوجه إلى جماعة من الصيادلة في طلبه لابتياعه، فليفعل. فقال المأمون: قد وضعت الاسم وهو «سقطيثا»، وسقطيثا ضيعة من الضياع، بقرب مدينة السلام، فسير المأمون جماعة إلى الصيادلة يسألهم عن سقطيثا، فكل ذكر أنه عنده، وأخذ الثمن، ودفع شيئا من حانوته، فصاروا إلى المأمون بأشياء مختلفة، فمنهم من أتي بقطعة حجر، ومنهم من أتى بقطعة وبر، ومنهم من أتى ببعض البزور، فأمر المأمون بمنعهم من مزاولة أعمالهم[٦].

٢ ـ أن الأفشين عندما سار إلى محاربة «بابك الخرمي» سنة ٢٢٠ هـ أمر بإحصاء من في معسكره من الصيادلة، فكتب الأفشين نحو عشرين اسما من أسماء الأسروشية، ووجهها إلى الصيادلة، وأمر الطبيب زكريا الطيفوري بمراقبتهم، فمنهم من أنكرها، وبعضهم ادعى معرفتها، وأخذ الدراهم من الرسل، ودفع إليهم شيئا من حانوته، فأمر الأفشين بإحضار جميع الصيادلة، فمن أنكر معرفة تلك الأسماء أذن لهم بالمقام في معسكره، ونفى الباقين عن المعسكر، ونادى في معسكره بذلك وهدد من لا علم له بهدر دمه إن عاد إلى مثل هذا العمل، وكتب إلى أمير المؤمنين المعتصم أن يوجه إليه بصيادلة وأطباء، يحسنون المعالجة، والصدق في أعمالهم حفظا لصحة الجيش[٧].

٣ ـ وفي سنة ٣١٩ هـ اتصل بالخليفة المقتدر أن رجلا مات بسبب غلط بعض المتطببين، فأمر إبراهيم بن محمد بن بطيا أن يقوم سنان بن ثابت بامتحان المتطببين، فمن وجده أهلاً للعمل أقره، وإلا منعه عن مزاولة التطبيب، فامتحنهم سنان، وأطلق لكل واحدٍ منهم ما يصلح أن يتصرف فيه، وبلغ عدد الذين أجازهم الطبيب سنان بمزاولة التطبيب في جانبي بغداد ثمانمائة رجل ونيفاً وستين رجلاً، سوى من استغنى عنه عن محنته باشتهاره بالتقدم في الصناعة، وسوى من كان في خدمة السلطان، ومنع من لا خبرة له من مزاولة العمل[٨].

وإن بعض الأطباء هددوا بالقتل والتعذيب للتأكد من صدقهم وإخلاصهم في مهنتهم، ولم يخونوا في عملهم. ومن ذلك، فإن المتوكل أراد أن يمتحن حنين بن إسحاق

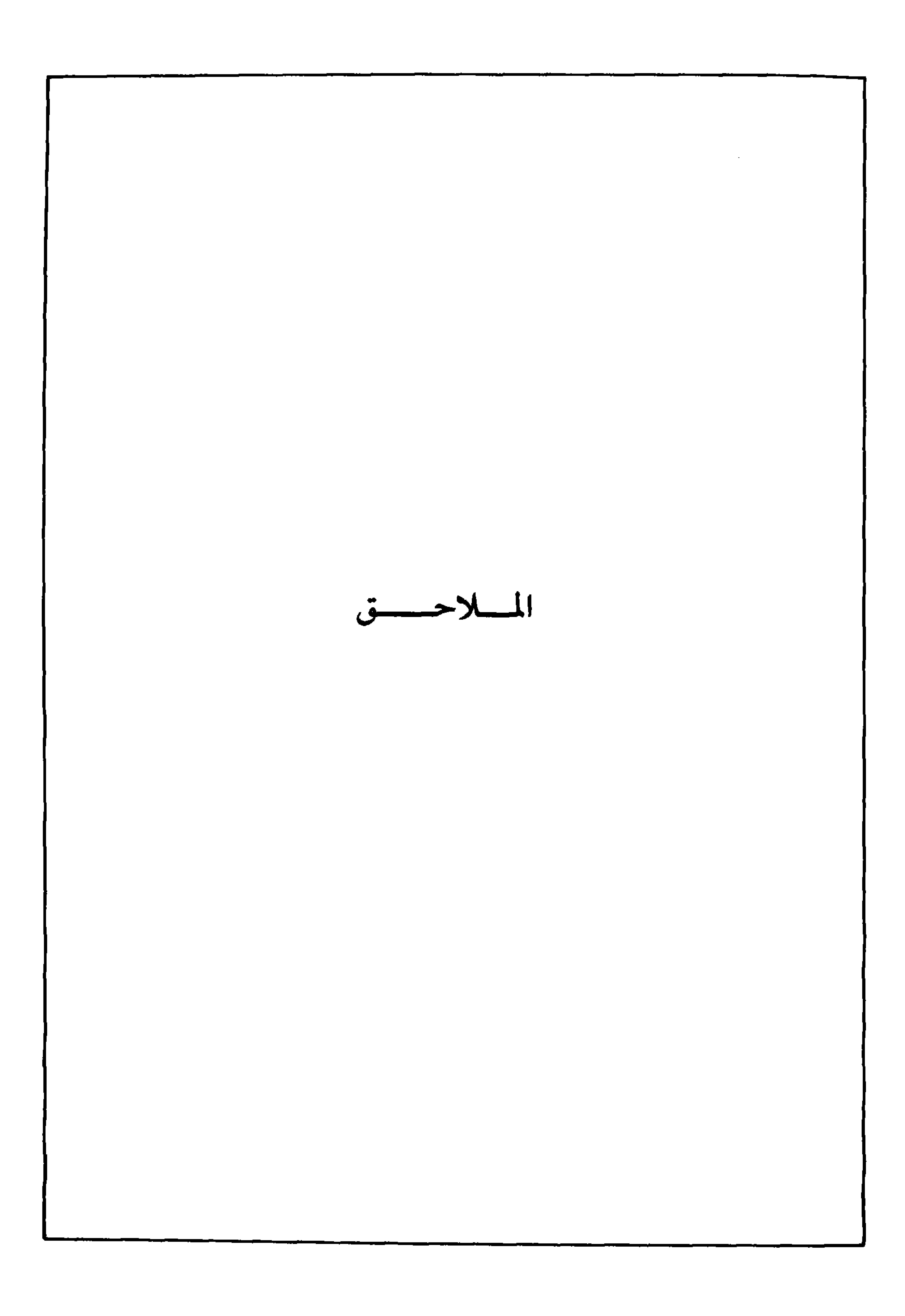
(٦) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٢٩، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/١٥٧.

(٧) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٢٩، تاريخ مختصر الدول، لابن العبري: ٢٤٤.

(٨) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ١٣٠، عيون الأنباء بطبقات الأطباء: ١/٢٢٢.

العبادي سنة ٢٤٧ هـ، فاستدعاه وخلع عليه خلعاً كبيرة، ثم قال له: أريد أن تصف لي دواء يقتل عدواً نريد قتله، وليس يمكن إشهار هذا، ونريده سراً، فقال حنين: ما تعلمت غير الأدوية النافعة، ولا علمت أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها. فرغبه وهدَّده وحبسه في بعض القلاع سنة ثم أحضره وأعاد عليه القول، وأحضر سيفاً ونطعاً، فقال حنين: قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية. قال الخليفة: فإنني أقتلك. قال حنين: لي رب يأخذ لي حقي غداً في الموقف الأعظم، فتبسم المتوكل، وقال له: طب نفساً فإننا أردنا إمتحانك والطمأنينة عليك، ثم سأله الخليفة: ما الذي منعك من الإجابة مع ما رأيته من صدق الأمر منا في الحالين؟ قال حنين: شيئان: هما الدين والصناعة، أما الدين، فيأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا، فكيف ظنك بالأصدقاء؟ وأما الصناعة، فإنها موضوعة لنفع أبناء الجنس، ومقصورة على معالجتهم، ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكد بأيمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالاً لأحد. قال الخليفة: إنهما شرعان جليلان(٩).

(٩) تاريخ مختصر الدول، لابن العبري: ٢٥١ ـ ٢٥٢



الملاحق

الملحق الأول
تدريس الطب وطرقه ومدارسه

أولا: تـدريـس الطـــب

عني المسلمـون في تدريس الـطب عنايـة كبيرة، لأهميـة الـطب في صحـة المجتمـع، فجعلوه في المرتبة الثانية بعد علم الدين، يقول الإمام الشـافعي ـ رحمه الله ـ «العلم علمان، علم الأديان، وعلم الأبدان» لأن أمور الدين لا تستقيم مع الضعف والمرض، ويقول أيضا «لا ينبغي لأحد أن يسكن بلدة ليس فيها عـالم، ولا طبيب»، فكيف يرتـاح الإنسان في بلد يسوده الجهل والمرض.

اتبعـوا أقوم الـطرق التي تسهل تلقي العلم، يتـدرجون في التـدريس مع المبتـدئين، فيختارون للتلميذ مبادىء العلم التي تسهل عليه تدبرها، وتكون كمدخل إلى علم الطب.

وضعوا كتباً مبسطة يدرسونها، كمقدمة لما يأتي بعدها، وهي كثيرة، ومنهـا ما وضعـه حنـين بن إسحـاق العبــادي «مسـائـل في الـطب للمتعلمــين»، عـلى طــريقـة التقسيم والتشجير[1].

كما وضع قسطا بن لوقا كتاب «النبض» للمتعلمين[2]. ووضع غيرها.

درسوا الطب في معاهد متعددة، درسوه في المارستان، وفي مـدارس الطب الخـاصة، وفي المدارس الكبيرة التي تشبه الجامعات في أيامنا هٰذه، فيكون فيها جنـاح خاص لتـدريس الطب، ودرسوه في المساجد، وفي المجالس التي كان يعقدها الأطباء في دورهم وغير ذلك.

طـرق التـدريـس

التدريس بالمارستان

كان الأطباء بعـد أن ينتهوا من فحص المـرضى وإعطاء العـلاج اللازم لهم يـدرسون الطب في المارستان وهذا هو التدريس التطبيقي.

ودرسوا الطب في مدارس خاصة، أوقفت لتدريس الطب فيها، ومن هٰذه المدارس:

---

(١) الفهرست لابن النديم: ٤١٠

(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، وله أيضاً: كتاب المدخل إلى علم الطب.

مدرسة مهذب الدين الدخوار ـ ٦٢٨ هـ:

أوقف داره وجعلها مدرسة يدرس فيها الطب، وأوقف لها أوقافاً جليلة، واشترط أن يكون فيها شرف الدين علي بن الرحبي، وابتدأ التدريس بها سنة ٦٢٨ هـ[٣].

مدرسة طب البصرة:

أنشأها الأمير أبوالمظفر باتكين بن عبدالله الرومي الناصري، المتوفىٰ سنة ٦٤٠ هـ، اشتغل بالعلم، وحفظ القرآن الكريم، وسلمت إليه البصرة، جدد مدارس كانت فيها قد دثرت، وعمل مدرسة يقرأ فيها الطب، وعمَّر مارستاناً كان قد خرب[٤].

المدرسة الربيعية والمدرسة اللبودية في الشام وغيرها من المدارس التي كان يدرس بها الطب[٥].

١ ــ ودرسوا الطب في المدارس الكبيرة ـ الجامعات ـ ومنها:

المدرسة المستنصرية: ففي سنة ٦٣٣ هـ تكامل بناء الإيوان الذي أنشيء مقابل المدرسة، وشرط أن يرتب فيه طبيب حاذق مسلم، وعشر أنفس من المسلمين، يشتغلون بعلم الطب عنده، ويوصل إليهم من الجراية ما يعطىٰ لغيرهم من طلبة الحديث كل يوم. وأن يطب الطبيب من يعرض له مرض من أرباب هٰذا الوقف، ويعطي المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة، وغير ذلك.

وزين صدر الإيوان الذي يجلس فيه الطبيب «بصندوق الساعات» يعرف منه أوقات الصلوات، وانقضاء الساعات الزمانية ليلاً ونهاراً[٦].

عمل هذه الساعة علي بن تغلب بن أبي الفضائل البعلي الأصل البغدادي المولد والمنشأ المعروف بالساعاتي (٦٠١ ـ ٦٨٣ هـ)، وصار يتولى هو تدبيرها.

ووصف ابن القوطي هذه الساعات فقال: « هذه الصفة دائرة، وصور فيها صورة الفلك، وجعل فيها طاقات لطاف، لها أبواب لطيفة، وفي الدائرة بازان من ذهب، في

---

(٣) عيون الأنباء: ٢/٢٤٤.

(٤) الحوادث الجامعة: ٣٣، ١٨١ ـ ١٨٣

(٥) التربية والتعليم في الإسلام: ٨٥

(٦) الحوادث الجامعة: ٨٢ ـ ٨٣، أنظر أيضا: خلاصة الذهب المسبوك: ٢١٢

طاستين من ذهب، ووراءهما بندقتان من شبهٍ، لا يدركهما الناظر، فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين، ويقع منهما البندقتان، وكلما سقطت بندقة، انفتح باب من أبواب تلك الطاقات، والباب من ذهب، فيصير حينئذ مفضضاً، وإذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان إلى موضعهما، ثم تطلع شموس من ذهب في سماء لا زوردية في ذلك الفلك، مع طلوع الشمس الحقيقية، وتدور مع دورانها، وتغيب مع غيوبها، فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها، كلما تكاملت ساعة، تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم يبتدىء في الدائرة الأخرى إلى إنقضاء الليل، وطلوع الشمس، فيعلم بذلك أوقات الصلاة، وساعات الليل والنهار.

والمدرسة المنصورية في القاهرة: وهي التي شيدها الملك المنصور، واتخذ فيها إيواناً لتدريس الطب به كما أن الطبيب يطب لمن في المدرسة(٧).

٢ ــ وكان بعض الأطباء يعقدون مجالس للطب في دورهم، يقصدهم الطلاب، ومن يرغب الاستزادة من العلم، يدرسون عليهم، ويأخذون عنهم ما أغلق فهمه. ومنهم:

ــ **يوحنا بن ماسويه (٢٤٣ هـ):** كان يعقد مجلساً للنظر، ويعمر المجلس بعلم هٰذا الشأن ـ الطب ـ أتم عمارة، ويجري فيه من كل العلوم(٨).

ــ **محمد بن زكريا الرازي (٣٢٠ هـ):** كان يعقد مجلساً في داره، يحضره طلابه، ويكلفهم بفحص المريض، فإن لم يصيبوا، تكلم الرازي موضحاً لهم ما أشكل عليهم(٩).

ــ **أبوعلي بن سينا (٤٢٨ هـ):** كان يجمع كل ليلة في داره طلبة العلم، فيقرؤن عليه من «الشفاء» وبعضهم يقرأ عليه من كتابه «القانون»(١٠).

ــ **أمين الدولة المعروف بابن التلميذ (٥٦٠ هـ):** كان يعقد مجلساً في داره ويحضره طلابه، ومن الراغبين في الاستزادة من العلم(١١).

ــ **مهذب الدين بن الدخوار (٦٢٨ هـ):** كان أيضاً يدرس الطب في داره، ويحضر مجلسه الطلاب، ومن يرغب من الأطباء أن يستفيد من علمه وتجاربه(١٢).

---

(٧) السلوك لمعرفة دول الملوك: ١٠٤٠/٣/١

(٨) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٤٩

(٩) أخبار العلماء: ١٧٩

(١٠) أخبار العلماء: ٢٧٣

(١١) عيون الأنباء: ١٤٤/٢

(١٢) عيون الأنباء: ٢٤٣/٢

ـ **رشيد الدين الصوري (٦٣٩ هـ)**: كان له مجلس للطب، والجماعة من الأطباء والتلاميذ يترددون إليه، ويشتغلون عليه في صناعة الطب[١٣].

٣ ـ ودرسوا الطب في المساجد والأربطة ومنهم:

ـ **عبداللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ)**: درس الطب في جامع دمشق، وفي الجامع الأزهر في القاهرة[١٤].

ـ **شمس الدين محمد بن عبدالله المصري (٧٧٢ هـ)**: درس الطب بجامع ابن طولون بالقاهرة[١٥].

ـ **عمر بن منصور البهادري (٨٢٤ هـ)**: ممن درس الطب بجامع ابن طولون[١٦].

ـ **محمد بن أحمد بن إبراهيم (٨٧٣ هـ)**: درس الطب أيضاً بجامع ابن طولون[١٧]. وكان الشيخ برهان الدين بن إبراهيم الجعبري الواعظ يجلس في رباطه، يروي الحديث، ويشارك معهم في الطب[١٨].

ثالثاً ـ طرق التدريس

١ ـ القراءة والشرح ـ التدريس النظري

يحضر الطلاب إلى الدرس، ومع كل واحد منهم نسخة من الكتاب الذي يدرسونه، وأمام الأستاذ نسخة منه، وما قد يحتاجه من كتب اللغة والمعاجم والعقاقير والنبات، إذ قد يحتاج إلى مراجعتها في أثناء التدريس، للتأكد من صحة ما يشكل عليهم.

يأخذ أحد الطلاب بقراءة ما عينه لهم الأستاذ الطبيب، وبعد أن ينتهي الطالب من القراءة، يأخذ الطبيب بقراءة الدرس فقرة فقرة، ويلفت نظر الطلاب إلى أن يتأكدوا من صحة نسخهم، فإذا ما وجد أحدهم خطأً في نسخته صححها على نسخة الأستاذ.

---

(١٣) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ٢٣٣

(١٤) عبداللطيف البغدادي في مصر: ١

(١٥) ـ (١٦) تاريخ البيمارستانات في الإسلام: ١٦٣ ـ ١٦٣

(١٧) التربية والتعليم في الإسلام: ٦٨

(١٨) التربية والتعليم في الإسلام: ٨٧ ـ ٩٠

ثم يأخذ الأستاذ بشرح الألفاظ والمصطلحات التي وردت، ويوضحها لهم مكرراً الشرح بقدر ما يحتاج الطلاب إلى تدبره، مراعياً في شرحه مستواهم العلمي، وسرعة تلقيهم.

وبعد أن ينتهي من شرح الدرس، يفسح لهم طرق المناقشة، فيسألونه عما أشكل عليهم، وما يبدو لهم وتستمر المناقشة.

وقد وصف ابن أبي أصيبعة مجلس مهذب الدين الدخوار في تدريسه فقال[19]: «فإذا فرغ منه، أذن للجماعة، فيدخلون إليه، ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين، وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معهم فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم، إن كان الوضع يحتاج فضل بحث، أو فيه إشكال يحتاج تحريراً، وكان لا يقرىء أحداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب الذي يقرأه ذلك التلميذ، لينظر فيه، ويقابل به، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمره بإصلاحه، وكانت نسخ الشيخ مهذب الدين التي تقرأ عليه في غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه، وكان أبداً لا يفارقه إلى جانبه مع ما يحتاجه من الكتب الطبية من كتب اللغة، كتاب الصحاح للجوهري، والمجمل لابن فارس، وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، فكان إذا جاءت في الدرس كلمة لغة يحتاج إلى كشفها وتحقيقها نظرها من تلك الكتب.

وكذا ما كان يفعله الطبيب محمد بن عبدالله الباهلي (٥٧٠ هـ) أحد أطباء المارستان النوري، بعد أن ينتهي من عمله في المارستان، وبين يديه المشارفون والخدم يعود إلى الإيوان الكبير، وجميع الإيوان مفروش، ويحضر كتب الاشتغال، وكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويجلسون بين يديه، ثم يجري مباحث طبية، وتقرأ التلاميذ، ولا يزال معهم في مباحثة واشتغال ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات[20].

٢ ــ أن بعض الدروس كانت تلقى بطريق المحاضرة: يلقي الأستاذ الدرس على طلابه بتأنٍ وهدوء جملة جملة، وقد يكرر بعضها ليفسح لطلابه تدبرها، وبعد أن ينتهي من إلقاء المحاضرة يفسح لهم طريق السؤال والمناقشة وإبداء الرأي والاستفهام عما لم يفهموه، أو ما أشكل فهمه.

---

(١٩) عيون الأنباء: ٢/٢٤٣

(٢٠) عيون الأنباء: ٢/١٥٥

مع العلم أنه يشرح لهم ما أجمله شرحاً وافياً، لا يترك عويصاً ولا مبهماً، ولا مغلقاً إلا وضحه لهم، وقد يكرر التوضيح ثلاث مرات أو أكثر حتى يفهموه.

٢ ــ التدريس العملي (التطبيقي)

يكون هذا في البيمارستان، وفي المجالس التي يعقدها الأطباء، ذلك أن الطلاب يلازمون أستاذهم الطبيب، وما يقوم به من فحص وتدقيق لأعراض المرض، كما أن الطبيب كان يلفت أنظار طلابه إلى أمور يحسن أن يتقنوها، وما يصفه من علاج، أو ما يقوم به من تجبير لعظم مكسور، وغير ذلك ـ وبعد أن ينتهي من تفقد المرضى مع طلابه يعود إلى محله، فيجتمع إليه الأطباء، والراغبون في الاستزادة من العلم مع طلابه وتجري بينهم المباحث الطبية، فيتكلم كل واحد بما يبدو له، وتعم المناقشات بينهم.

وبعضهم كان يرافق أستاذه عند تفقد المرضى، ويعود معه إلى محل جلوسه، ويسأل أستاذه عما يبدو له، كما كان يفعل هذا ابن أبي أصيبعة في المارستان النوري، فإنه كان كثير الملازمة لأستاذه في كل أعماله[٢١].

وبعضهم كان يحضر طلابه ويرتبهم حسب قابلياتهم ودرجة علمهم، ليقف على ما استفاده كل واحد منهم في فحص المرضى، وتقديم العلاج.

كان أبوبكر الرازي ــ ٣٢٠ هـ يعقد مجلسا في داره، ويجلس في مجلسه[٢٢]، ودونه التلاميذ، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ آخرون، وكان يجيء الرجل، فيصف ما يجد لأول من يلقاه منهم، فإن كان عنده علم، وإلا تعداه إلى غيره، فإن أصابوا، وإلا تكلم الرازي في ذلك، وهكذا.

وبعضهم كان يطلع طلابه عملياً، على ما يقوم به من تدقيق، وتحليل وتجربة، ما يؤدي به إلى نتيجة حسنة في تشخيص المرض.

ومن ذلك ما فعله هبة الله بن ملكا اليهودي المهتدي المعروف بأوحد الزمان ـ ٥٦٠ هـ[٢٣] : كان جالساً في مجلسه للإقراء، وعليه ثوب أطلس، مثمن أحمر اللون، من

---

(٢١) عيون الأنباء: ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣

(٢٢) الفهرست لابن النديم: ٤٢٦، أخبار العلماء: ١٧٩

(٢٣) أخبار العلماء: ٢٢٥ ـ ٢٢٦

خلع السلجوقي. إذ دخل عليه رجل وشكى سعالاً يلازمه، فأمره، إذا تفلت وقطعت شيئاً، فلا تتفله حتى أقول لك ما تصنع، فقعد ساعة وقطع، فاستدعاه إليه، وأدخل يده في كم ثوبه الأطلس، وقال له: اتفل فيه، فتوقف خشية على موضع يده من الثوب، فانتهره أوحد الزمان فتفل، وضم أوحد الزمان يده على ما فيها من الثوب والتفلة، وبعد ساعة أخذ يقلب التفلة ويتأملها، ووصف له نارنجة يأكلها، ويأتيه في اليوم الثاني، فأعلمه أن السعال اشتد عليه أكثر مما سبق، فأطعمه نارنجة أخرى يأكلها، فأتاه في اليوم الثالث وأعلمه أن السعال قد انقطع عنه، فقال له برئت ـ والحمد لله ـ وإياك أن تأكل نارنجة أخرى.

فلما قام من عنده سأله الجماعة عن السبب فقال: أخذت تفلته في الثوب الأطلس الأحمر، وأحميتها في كفي ساعة، ونظرت فيها هل بقي بعدما تشربه الثوب مما تفل كالقشور والنخالة، فلم أجده، ولو وجدته دلني أن السعال من قرح، إما في الرئة وإما في الصدر، وكلاهما صعب، فلما لم أجد شيئاً من ذلك، علمت أنه بلغم لزج زجاجي، وقد لجح بقصبة الرئة، وآلات التنفس، فأردت جلاءه من هناك، وأمرته بتناول النارنجة، فلما عاد إليَّ، ووجد شدة، علمت أنها قد جلت وقطعت ما هناك، ولم تستنفده، فأمرته بتناول الأخرى، فجلت ما بقي، ونهيته عن استعمال الأخرى، لئلا يقرح الموضع بكثرة الجلاء، فيقع فيما احترزنا منه، فاستحسن الحاضرون ذلك.

وفي كتب التراجم وسير الأطباء نجد أخباراً كثيرة مما قام به الأطباء، في حمل طلابهم على فحص المرضى وإبداء آرائهم على ما يرونه من علاج، فإن عجزوا قام بذلك الطبيب، يفسح لهم باب المناقشة، فيسألونه عما رآه من أعراض المرض، وما أعطاه من علاج، فيقرر لهم الأستاذ وجهة نظره. ومن ذلك:

كان أمين الدولة أبو الحسن هبة الله المعروف بابن التلميذ (٥٦٠ هـ) يدرس عليه الطب خمسون تلميذاً، ويحضر مجلسه الطبي خلق كثير، فكان يحث طلابه على فحص المرضى وإبداء آرائهم فيما يرونه لعلاجهم، يكون هٰذا تحت إشرافه، ليقف على تدقيقهم في أعراض المرض لمن يقومون بفحصه.

وفي أحد الأيام دخل إليه رجل منزف يعرق دماً، في زمن الصيف، فسأل تلاميذه عما يرونه من أمره ـ وكانوا قدر خمسين نفساً ـ فلم يعرفوا المرض، فأمر المريض أن يأكل خبز

شعير مع باذنجان مشوي، ففعل ذلك ثلاثة أيام فبرأ.

فسأله أصحابه عن العلة فقال: إن دمه قد رقَّ، ومسامه قد تفتحت، وهذا الغذاء من شأنه تغليض الدم، وتكثيف المسام.

وله مجالس أخرى مع طلابه، ذكرها ابن أبي أصيبعة عند كلامه عنه[٢٤].

نرى مما تقدم أن الأستاذ الطبيب يحمل طلابه على فحص المرضى تحت إشرافه، كما يقوم هو بفحصه أمامهم، ثم يحملهم على الاستفسار من الطبيب الأستاذ أن يوضح لهم ما وقف عليه وما يراه من علاجه.

---

(٢٤) عيون الأنباء: ١/٢٥٩ - ٢٦٥

الملحق الثاني
حكم التشريح في الإسلام

لم نقف على نص صريح يذكر أن المسلمين قاموا بتشريح الجثث الآدمية. وفي بحوثهم التي تكلموا فيها، وما قاموا به من تجارب، وما اهتدوا إليه من دقائق أعضاء الجسم، وعمل كل منها، يجعلنا نميل إلى أن بعضهم عانىٰ صناعة التشريح سرًّا، ووقف على مالم يسبقه إليه أحد، فاكتشاف الدورة الدموية التي تكلم عنها ابن النفيس بكل دقة وصواب، عن أعمال القلب، ودوران الدم في الجسم، الشرايين والأوردة، وما يتفرع منهما وعمل كل منهما، مما لا يختلف عما يذهب إليه أطباء اليوم عن هٰذه الدورة الدموية.

وابن النفيس نفسه عندما يتكلم عن التشريح يقول: «إنه فن لا علم»، فالعلم يؤخذ من الكتب أو عن عالم، والفن لا يتم إلا بالعمل والمشاهدة والتطبيق.

وابن النفيس عندما شرح كتاب القانون لابن سينا يقول عن بعض ما جاء فيه: «إن التشريح يكذب هٰذا» ويقول عن غيره: «إن التشريح يؤيد هذا»، فهل عانى ابن النفيس التشريح سراً؟[1].

وابن رشد الأندلسي عالم جليل في علوم مختلفة، ومنها الفقه وأصول الدين والفلسفة والطب، يقول عن التشريح: «من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً».

وابن رشد نفسه يسمي التشريح «التسليخ»، ويقول: إن معرفة الأعضاء بالتسليخ تقرب العبد من الله، ويستشهد بالآية الكريمة **﴿وفي أنفسكم أفلا تُبصِرون﴾** والتسليخ لا يكون إلا بالعمل[2].

وإن ما تكلم به بعض أطباء العرب كالزهراوي العالم الجراح، وابن النفيس، وابن رشد وغيرهم، يجعلنا نميل إلى أنهم ربما عانوا صناعة التشريح ـ التسليخ ـ بصورة سرية.

والسبب الذي حمل الأطباء على أن يكتموا ما قاموا به من تشريح الجثث الآدمية، خوفهم من بطش السلطان، ويصرح بهذا يوحنا بن ماسويه فيقول: لولا فضول السلطان، ودخوله فيما لا يعنيه لشرحت ابني هذا[3].

---

(١) ـ (٢) الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم: ٢٣

البحوث والمحاضرات: ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

(٣) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٥٥ ـ ٢٥٦ عيون الأنباء بطبقات الأطباء: ١/ ١٨٠ ـ ١٨١.

وعليه، فإن نظرتنا إلى التشريح لا يمكن أن تؤدي إلى نتيجة جلية واضحة، فالأطباء كانوا يخشون العقاب، فعدلوا ظاهرا عن التشريح، أو عن الكلام عنه بصورة صريحة، ولربما عانوه وكتموا أمره.

شرّحوا بعض الطيور، ومنهم ثابت بن قرة بن مروان، أبو الحسن الحراني الصابي (٢٢١ ـ ٢٨٨هـ)، كانت منزلته عند الخليفة المعتضد رفيعة، ومع هٰذا لم يذكرأنه شرح جثة آدمية، ولكنه شرح مالك الحزين، من الطيور، وألف كتاباً عنه[٤].

ويوحنا بن ماسويه ـ (٢٤٣ هـ) فإنه كان يشرح القردة، ومن ذلك:

ففي سنة ٢٢١هـ أهدى ملك النوبة للخليفة المعتصم بالله العباسي هدايا، منها قردة، فأرسل الخليفة إلى يوحنا قرداً كبيراً منها، وأعلم يوحنا رسول الخليفة: أنه سيقوم بتشريح القرد، وأنه سيضع له كتاباً لم يوضع مثله في الإسلام، ثم فعل بالقرد، فظهر منه كتاب حسن، استحسنه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه، ويقول عند كلامه عن ابنه ـ وكان متخلفاً ـ: ولولا فضول السلطان، ودخوله فيما لا يعنيه، لشرحت ابني هٰذا حياً، مثل ما كان جالينوس يشرح القرود والناس، فكنت أعرف بتشريحه الأسباب التي كانت لها بلادته، وأريح الدنيا من خلقته، وأكسب أهلها بما أضع في كتابي في صنعة تركيب بدنه، ومجاري عروقه، وأورداه وأعصابه علماً، ولكن السلطان يمنع من ذلك[٥].

فيوحنا بن ماسويه كان يشرح القرود التي هي قريبة من تركيب جسم الإنسان، وتجنب تشريح الجثث الآدمية خوف العقاب.

يرى بعضهم أن التشريح تمثيل بأعضاء جسم الإنسان، وهٰذا مما لا يناسب كرامته. من كرامة الإنسان حفظ صحته، والعناية بجسده ووقايته من الأمراض، وعلى هٰذا جعل الرسول ﷺ الطب من فروض الكفاية في المجتمع الإسلامي، يجب أن يكون في كل مجتمع إسلامي من يعاني ويتقن صناعة الطب. ويطب الناس، وهذا من تكريم الإسلام للإنسان.

---

(٤) أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٨٣.

(٥) عيون الأنباء بطبقات الأطباء: ١/١٧٨.

والتشريح لا ينقص من كرامة الإنسان، «فالأمور بمقاصدها»، والإسلام قد فرض قطع يد السارق[٦]، فقطع يد السارق ليس بتمثيل، وإنما إقامة حد من حدود الله، به تحفظ أموال الناس، ويستقيم العدل في المجتمع، ولا يجوز التهاون في هذا، مهما كانت منزلة السارق.

وفي القرآن الكريم قوله تعالى: **﴿إنما جزاء الذين يُحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أن تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خِلافٍ أو يُنفوا من الأرض﴾**.... الآية[٧].

فتقطيع أطراف المفسد إقامة لحد من حدود الله تعالى، وتأديباً لغيره، وهو ليس بتشويه، وإنما إقامة حد من حدود الله تعالى، به يستتب الأمن، ويُنشر العدل.

وإذا تشاجر شخص مع آخر، واعتدى عليه وبتر بعض أعضائه، فإن هٰذا تمثيل بالإنسان، ولا يجوز التهاون في عقاب المعتدي، حفظاً لكرامة المعتدىٰ عليه، واستقراراً للأمن في المجتمع، وعليه يجب أن نفرق بين العقاب الذي يجب أن يطبق، والذي يؤدي إلى دفع الأذى عن المجتمع، والمحافظة على صحة الجسم وسلامته، وبين التمثيل الذي هو من الأمور القبيحة.

فتطبيق العقاب مهما كان نوعه واجب، ولا يجوز التهاون به مع أي فرد كان، ولو يؤدي إلى قطع عضو أو أكثر من المعتدي، والرسول ﷺ يقول «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

والطب اليوم غير الطب الذي كان سابقاً فتشخيص الأمراض قد يكون بالتصوير والتحليل وزرع المكروبات والأشعة المختلفة والتشريح، والوقوف على أعضاء الجسم بصورة دقيقة، الظاهرة منها والمدفونة، ولربما اهتدوا إلى طرق أخرى في المستقبل.

والإسلام دين يسر «يَسِّروا ولا تُعَسِّروا» يحث المسلم على الاستزادة من كل علم لا يتعارض مع أصول الدين «خذ الحكمة ولا تضرك من أي وعاء خرجت ـ والحكمة ضالة

---

(٦) سورة المائدة: ٤٢.

(٧) سورة المائدة: ٣٧.

المؤمن»، هذا ما حمل المسلمين على أن يقبلوا على العلوم المختلفة التي يحتاجها المجتمع، فنقلوها عن غيرهم، ودرسوها وحققوها وأبدعوا فيما وضعوه من آراء وأعمال.

فمزاولة الطب اليوم تحملنا على الوقوف على أعضاء الجسم المختلفة بصورة عملية، نعرف مواضعها، ونميز بعضها عن بعض بصورة دقيقة، ووظيفة كل منها.

ومن القواعد المقررة في الإسلام: «مالا يتم الفرض إلا به فهو فرض» فالطهارة والنظافة فرض في الإسلام؛ لأن الصلاة لا تتم إلا بها.

وعليه فالتشخيص بعلم الطب بدقة يتوقف على أمور عديدة، منها علم التشريح وخاصة إذا كان الطبيب مختصاً بالجراحة، ويقوم بعمليات فعلية في جسم الإنسان.

وباب الرخص واسع في الإسلام ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[8] فقد رخص الإفطار للمريض والعاجز وللمسافر والمرأة المرضعة وغير هذا كثير.

ورخص حلق شعر الرأس للمحرم، إذا صار في شعره هوام تؤذيه، فحلق شعر الرأس علاج للعلة، وسبب للبرء والشفاء.

وإذا فسد عضو في جسم الإنسان، وعز شفاؤه، فمن الواجب بتر العضو، خشية أن يسري فساده إلى أعضاء جسم الإنسان.

ورخص النظر إلى العورة إذا استدعى الأمر ذلك عند المعالجة. ورخص للمرأة التي تعاني الطب أن تنظر من الرجل، ما ينظر الرجل إلى الرجل ـ وبالعكس[9].

نجد أموراً تستدعي التشريح للوقوف على الأسباب التي أدت إلى وقوعها. من ذلك: جثث القتلى التي لم يهتد إلى قاتليها، فالوقوف على ما أدّى إلى موت القتيل وذلك لإثبات الجناية على القاتل، أو تبرئة من اتهم بالقتل. وهو ما يقتضيه العدل في الإسلام، فلا يظلم بريء، ولا يخلص مجرم من القتل، فالتشريح هو الذي يقرر هٰذا ويعطي سبب القتل. وإذا اتهم شخص بأنه دس سُماً لشخص آخر مما أدّى إلى موته وشهد شهود زور على هذا، فإن تشريح جثة الميت تؤيد فيما إذا كانت وفاته بسم، أو بغير ذلك.

---

(٨) سورة الحج: ٧٨.

(٩) الطب النبوي، للذهبي: ١١٢ ـ ١١٣.

وكذا إذا قتل شخص شخصاً آخر، ثم شوّه جثة القتيل بحرقها، وادعى أن الموت كان بسبب الحرق، فإن تشريح الجثة يكذب هذا.

وباب «الطب العدلي» هو الذي يقرر سبب الموت بالتشريح، وهو من الأمور المعول عليها في إثبات الجنايات، أو نفيها، وكلها متوقفة على التشريح.

وباب القياس في الفقه الإسلامي، من الأبواب التي يعول عليها في إثبات الحلال والحرام. ومن ذلك ما قرره الفقهاء:

أن الميت إذا ابتلع مالاً في حياته، وأرادوا التأكد من ذلك، شقوا بطنه لإخراج المال منه ـ ولو كان مالاً قليلاً، فيقدره بعض المالكية بنصاب السرقة، أي ربع دينار من الذهب، أو ثلاثة دراهم من الفضة. وكلام الشافعية قريب من هذا، وربما كان الأمر عندهم أهون وأوسع في تقدير المال الذي ابتلعه[١٠].

فإذا قسنا هذا المال القليل، الذي يحمل على شق بطن الميت، إلى فوائد التشريح في الطب نجد أن القيام به ليس مما ينفيه الشرع. فبه تدرأ المفاسد، ويقرر الحق، ولولاه لهدرت حقوق، وظلم بريئون، ونجا جناة مما قاموا به من المفاسد، هذه الفوائد التي تتوقف نتائجها على علم التشريح، أهم وأجل من شق بطن الميت لاستخراج ربع دينار.

وإن المسلمين عندما نقلوا العلوم عن الأمم الأخرى ـ ومنها الطب ـ المسميات التي وضعوها للأعضاء المختلفة، الظاهرة منها والمدفونة، مهما كانت صغيرة، كلها مسميات عربية خالية من العجمة، مما يدلنا على أنهم يعرفونها، ويسمونها بما يناسبها، ولو لم تكن عندهم معلومة، لما وقفنا على أسمائها باللغة العربية، مهما كان المسمى دقيقاً.

والمسلمون عندما نقلوا عن غيرهم، نقلوا الأسماء والمصطلحات التي لم يعرفوها، نقلوها بأسمائها الأعجمية، مثل: الجغرافيا، اسطرلاب، اياغوجي.... الخ، كما هي الحال عندنا في أيامنا هذه، فإننا أخذنا أسماء المخترعات عن غيرنا بأسمائها الأعجمية مثل: تلفون، تلفزيون، كرامافون.... الخ.

---

(١٠) انظر ما يأتي: فتاوي حسين مخلوف ـ مفتي الديار المصرية: ٢٦/٢، حاشية القليوبي على المحلي: ٣٥٢/١، حاشية ابن عابدين: ٦٠٢/١: بحث للدكتور الشيخ مصطفى البنجويني (مخطوط).

هٰذا ما كان عليه العلماء المسلمون الذين نقلوا العلوم والطب عن غيرهم من الأمم. فاصطفن بن بسيل كتب طريقته التي سار عليها في ترجمة الكتب الطبية وغيرها عن اليونانية: فإذا علم من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسماً في اللسان العربي، فسره بالعربية، ومالم يعلم له في اللسان العربي اسماً، تركه في الكتاب على اسمه اليوناني اتكالاً منه على أن يبعث الله من يعرف بعده ذلك ويفسره(١١).

ومما اشترطوه على الكحّال والجراح، أن يعرفوا دقائق الأعضاء، وتمييزها عن بعضها، ومواقعها مهما كانت دقيقة، لتكون أعمالهم التي يقومون بها دقيقة، فلا يعبثون بالجسم، وكيف يعرفون دقائق الأعضاء المدفونة، وتمييزها عن بعضها، وأماكنها، فهل يتم هٰذا إلا بالتشريح.

* * *

هذا مما وفقني الله تعالى إليه. وأرى لو تعقد ندوة يساهم فيها أطباء من المسلمين، وعلماء الدين الذين يؤخذ عنهم. ويطرح هذا الموضوع للمناقشة، والوقوف على نتيجة يقرها الدين الحنيف. وينتفع بها المجتمع، والحمد لله رب العالمين.

---

(١١) عيون الأنباء بطبقات الأطباء: ٢/٤٦ ـ ٤٧.

الملحق الثـالـث
سماحة المسلمين مع الأطباء غير المسلمين

يحث الإسلام على الاستزادة من كل علم يفيد المجتمع، ومن أي مصدر كان، « خذ الحكمة ولا تضرك من أي وعاء خرجت »، وأن يجدُّوا في طلبه من اختلاف الأقطار « أطلبوا العلم ولـو في الصين »، هـذا ما دفـع المسلمين إلى الإقبـال على النقـل من اختـلاف الأمم والنحـل، والاستفادة من علومهم ومعـارفهم، مما لا يتعـارض مـع الـدين، فـزهت العلوم عندهم للأسباب التالية:

١ ــ الحرية المطلقة التي تمتع بها العلماء في ظـل المسلمـين، فقـد سـاهم في النقـل والتأليف علماء من أمم ونحل مختلفـة في الدين واللغـة والرأي، فيهم المسلمـون والنصارى والصابئة والـبراهمة واليهـود والمجوس وغـيرهم، لهم مطلق الحـرية في الاعتقـاد والرأي، . فيكتبون ويتكلمون بما يرونه. كما أنهم أحرار في تأديـة شعائـرهم الدينيـة، حتى إنهم كانـوا يجادلون علماء المسلمين بما يعتقـدونه، وبعضهم من الشعـوبيين المغـالين في بغض العـرب. فكان فتيودورس أبوقرة المتـوفى سنة ٨٢٠ م تلميـذ يوحنـا الدمشقي، وأسقف حـران يجادل علماء المسلمين في الأمور الدينية بحضور الخليفة المأمون[١].

ولمـا عرض الخليفـة المنصور عـلى طبيبه جـورجيوس أن يـدخل الإسـلام، ليكون في الجنة، أجابه جورجيوس: أنا على دين آبائي أموت، وحيث يكون آبائي أحب أن أكون إما في الجنة أو في النار»[٢].

وكتب عبدالله بن إسماعيل الهاشمي رسالة إلى عبدالمسيح بن إسحاق الكندي يـدعوه بها إلى الإسلام، فأجابه عبدالمسيح برسالة يرد بها عليه، ويدعـوه إلى النصرانية، فلم ينكـر عليه هذا[٣].

وممن عمـل في بيت الحكمة ببغـداد بعض الشعـوبيـين المغـالـين في بغض العـرب، وتفضيل العجم عليهم، منهم: علّان الـوراق، صاحب بيت الحكمـة، ذكر عنـه ياقـوت: أصله من الفـرس، وكان عـلّامة بـالأنساب والمثـالب والمنافـرات، منقطعـا إلى البرامكـة،

(١) خزائن الكتب في الخافقين ١٠/٥٤.

(٢) عيون الأنباء بطبقات الأطباء ١/١٢٥.

(٣) طبع الكتاب في لندن سنة ١٨٨٥م وفي خزانة كتبنا نسخة منه.

وينسخ في بيت الحكمة، للرشيد، والمأمون، والبرامكة، وعمل كتاب (الميدان في المثالب) الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها، ابتداء ببني هاشم قبيلة قبيلة على الترتيب إلى آخر قبائل اليمن، ولم يلاق أذى من أرباب الدولة.

وسهل بن هارون بن رامنوي الدستمياني: وهو من البلغاء الفصحاء، فارسي الأصل، شعوبي المذهب، شديد العصبية على العرب، ومن المختصين بخدمة المأمون، فجعله أمينا على كتب الحكمة التي أرست إلى المأمون من جزيرة قبرص(٤).

٢ ـ وكان الخلفاء يعقدون مجالس المناظر بين العلماء، ومنهم المأمون، كان يحضرها بنفسه، ويجلس بينهم، ويشارك معهم في المناظرة من غير تمييز، ولهم مطلق الحرية فيما يدور بينهم، حتى لو كان مخالفا لرأي المأمون(٥).

٣ ـ أجزلوا العطاء لأهل العلم، وأنفقوا على ما يقومون به من نقل وتأليف بسخاء، مما حمل الكثير من العلماء أن يرحلوا إلى الحواضر الإسلامية، ويساهموا في هذه الحركة المثمرة.

وإذا رجعنا إلى ما كان يفيضه الخلفاء ومحبوا العلم على النقلة والمؤلفين من الأطباء وغيرهم، نجد ما كان يحصل عليه بعضهم من مبالغ كبيرة وهبات جليلة، ومنازل رفيعة مالا يحظى به الوزراء ـ إذ ذاك ـ(٦).

ذكروا أن ما كان يتقاضاه جبرائيل بن بختيشوع ما يقرب من خمسة ملايين درهم في السنة وهذا يفوق ما كان يتقاضاه الوزير إذ ذاك.

وكان مرسوم ابن التلميذ (ـ ٥٥٩ هـ) ببغداد، يزيد كل سنة على عشرين ألف دينار(٧).

وكان حنين بن إسحاق يكتب ما يترجمه على ورق ثخين، وبحرف كبير، ليثقل وزنه ويزيد على ما يقبضه من المال، لأنهم يدفعون إليه ثمن ما يترجمه بوزن الكتاب الذي ينقله ذهبا(٨).

---

(٤) بيت الحكمة ٣٨ ـ ٣٩.

(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١/٣٠.

(٦) عيون الأنباء بطبقات الأطباء ١/١٣٦ ـ ١٣٧.

(٧) تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي: ١٤٥.

(٨) عيون الأنباء لطبقات الأطباء ١/١٨٧.

وكان بنو موسى بن شاكر ينفقون على النقل خمسمائة دينار في الشهر، وأوفدوا العلماء إلى البلاد يبحثون عن الكتب العلمية المختلفة، ويشترونها بأوفر الأثمان[٩].

وتمتع الأطباء بمنزلة رفيعة عند الخلفاء وأرباب الحكم، فربما جلس الطبيب بحضور الخليفة، بينما القواد وأرباب الحكم وقوف أمامه.

٤ ــ والخلفاء يعطون الحرية التامة لأطبائهم، ويمزحون معهم، ويجلونهم غاية الإجلال، ومن ذلك: كان المعتضد الخليفة العباسي يسير في بستانه الفردوس ومعه ثابت بن قرة، فاتكأ المعتضد على يد ثابت، بينما كانا يسيران، ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة، ففزع ثابت، فإن المعتضد كان مهيبا جداً، وقال لثابت: يا أبا الحسن ـ وكان في الخلوات يكنيه ـ وضعت يدي على يدك واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون، فإن العلماء يَعلون ولا يُعلون[١٠].

ولما اعتَّل بختيشوع بن جبرائيل ـ طبيب الخليفة المتوكل ـ أمر المتوكل المعتز بالله أن يعوده ـ وهو إذ ذاك ولي عهد ـ فعاده، ومعه محمد بن عبدالله بن طاهر، ووصيف التركي[١١].

دخل بختيشوع بن جبرائيل الطبيب إلى المتوكل، وهو جالس على سدة في وسط داره الخاصة، فجلس بختيشوع على عادته معه فوق السدة، وكان عليه دراعة ديباج رومي قد انشق ذيلها قليلا، فجعل المتوكل يحادث بختيشوع ويعبث بذلك الفتق، حتى بلغ إلى حد النيفق *، ودار بينهما الكلام يقتضي أن سأل المتوكل بختيشوع: بماذا تعلمون أن الموسوس يحتاج إلى الشَدِّ؟ قال بختيشوع: إذا بلغ إلى فتق دراعة طبيبه إلى حد النيفق، شددناه، فضحك المتوكل حتى استلقى على ظهره، وأمر له بخلعة حسنة ومال جزيل، وهو يدل على منزلة بختيشوع عند الخليفة المتوكل وانبساط الخليفة معه[١٢].

وبلغ من تقديم الخليفة المعتصم بالله العباسي لطبيبه سلمويه، كان يسميه «أبي» ويكرمه كثيرا يفوق الوصف، بحيث جعله ينوب عنه بالرد على توقيعات الدواوين في

---

(٩) الفهرست لابن النديم: ٣٧٨ ـ ٣٧٩، أخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٤، ٨١، ٢٠٨.

(١٠) عيون الأنباء بطبقات الأطباء ٢١٦/١.

(١١)، (١٢) عيون الأنباء بطبقات الأطباء ١٤٢/١، تاريخ مختصر الدول: ٢٤٩.

(*) الموضع المتسع من الدراعة

السجلات وغيرها، مع العلم أن سلمويه كان نصرانيا، حسن الاعتقاد في دينه، ولما مات سلمويه أمر الخليفة أن تحضر جنازته الدار، ويصلي عليه بالشموع والبخور على زي النصارى الكامل[١٣].

نجد مما تقدم أن للأطباء منزلة رفيعة عند الخلفاء ورجال الدولة، يقدمون على غيرهم، ولهم من الامتيازات ما لم يحظ بها الوزراء، حتى إن بعض الخلفاء كانوا يستشيرونهم ببعض الأمور، لعلمهم وصدقهم وإخلاصهم، فالإسلام دين سماحة وتقدير لكل ذي فضل، وبعضهم كان من الترف والنعيم مالم يكن عند رجال الدولة، ولم يكن هذا في بغداد فقط، بل كان الأمر في الحواضر الإسلامية، لهم من الامتيازات والهبات والمنازل الرفيعة، ما تدفعهم إلى الإخلاص والعمل المثمر، وساهموا في نهضة إسلامية أنارت للعالم طرق العلم والمعرفة.

---

(١٣) عيون الأنباء بطبقات الأطباء ١/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

المصادر والمراجع

أهم المصادر التي عولنا عليها:

ابن الأثير (عز الدين)

ـ الغابة في أخبار الصحابة، مصر ١٢٩٠ هـ.

ـ الكامل في التاريخ، مصر

ابن الأخوة (محمد)

ـ معالم القربة في أحكام الحسبة، كمبردج ١٩٣٧ م.

ابن أبي أصيبعة (أحمد)

ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، مصر ١٢٩٩ هـ.

ابن بطوطة (محمد)

ـ تحفة النظار في عجائب الأمصار، مصر ١٣٦٦ هـ، ١٩٢٨ م.

ابن تغري بردي (يوسف)

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبع دار الكتب المصرية.

ابن جبير (محمد)

ـ رحلة ابن جبير، مصر ١٣٥٦ هـ

ابن الجوزي (جمال الدين عبدالرحمن)

ـ سيرة عمر بن الخطاب، مصر ١٣٤٢ هـ، ١٩٢١ م

ـ المصباح المضيء في خلافة المستضيء، بغداد ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٧٦ م

ابن جلجل (سليمان)

ـ طبقات الأطباء والحكماء، القاهرة ١٩٥٥

ابن حزم الظاهري، (علي بن أحمد)

ـ طوق الحمامة في الألف والآلاف، مصر

ابن حجر العسقلاني، (أحمد بن علي)

ـ الإصابة في أخبار الصحابة، مصر ١٣٢٥ هـ

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد ١٣٤٥ هـ

ابن خلكان (أحمد)

ـ وفيات الأعيان ، مصر ١٣١٠ هـ

ابن سلام (القاسم)
ـ الأموال، مصر ١٣٥٣ هـ
ابن الطقطقي (محمد بن علي)
ـ الفخري في الآداب السلطانية، بيروت ١٣٨٥ هـ.
ابن عابدين (محمد أمين بن عمر)
ـ حاشية ابن عابدين على «در المحتار على در المختار»
ابن عبدربه (أحمد بن محمد)
ـ العقد الفريد، مصر ١٣٨٤هـ
ابن العماد الحنبلي (عبدالحق)
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مصر ١٣٥٠ هـ
ابن العبري (غريغوريوس)
ـ تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٨٩٠ م.
ابن الفوطي (عبدالرزاق)
ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد ١٣٧١ هـ
ابن فضل الله العمري (شهاب الدين)
ـ التعريف بالمصطلح الشريف، مصر ١٣١٢ هـ
ابن قدامة المقدسي (أحمد بن محمد)
ـ مختصر منهاج القاصدين، دمشق ١٣٨٩ هـ
ابن قتيبة الدينوري (عبدالله بن مسلم)
ـ المعارف، مصر ١٣٥٣ هـ، ١٩٣٤م.
ـ الأمامة والسياسة، مصر
ابن قيم الجوزيه (محمد)
ـ الطب النبوي، القاهرة ١٣٧٧ هـ، ١٩٥٧ م
ـ الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مصر ١٣١٧ هـ
ابن قنينو (عبدالرحمن)
ـ خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك، بيروت ١٨٨٥م
ابن كثير (إسماعيل)
ـ البداية والنهاية، مصر

ابن النديم (محمد بن اسحاق)
ـ الفهرست، مصر ١٣٤٨ هـ
ابن هشام (عبدالملك)
ـ السيرة النبوية، مصر ١٣٧٥ هـ، ١٩٥٥ م
ابن الشيخ (الحافظ أبومحمد عبدالله بن محمد الأصفهاني)
ـ كتاب أخلاق النبي ﷺ، مصر ١٩٧١م
أبونعيم الأصفهاني (أحمد بن عبدالله)
ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مصر ١٣٥١ هـ، ١٩٣٣ م
أبوالفتوح التونسي
ـ من أعلام الطب العربي، مصر ١٩٤٤ م
أبويوسف (القاضي يعقوب بن إبراهيم)
ـ الخراج، القاهرة ١٣٤٦ هـ
الآلوسي (محمود شكري)
ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، مصر ١٣٤٣ هـ، ١٩٢٥ م
الأبشيهي (أحمد)
ـ المستظرف من كل فن مستطرف، مصر ١٣٤٨ هـ
أحمد أمين
ـ ضحى الإسلام، مصر ١٣٥٢ هـ، ١٩٤٢ م
أحمد عيسى بك
ـ تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٣٥٧ هـ
ـ معجم الأطباء، مصر ١٣٦١ هـ، ١٩٤٢ م.
أسعد داغر
ـ حضارة العرب، مصر ١٣٣٧ هـ، ١٩١٩ م.
أكرم زعيتر (بالاشتراك مع درويش المقدادي)
ـ تاريخنا بأسلوب قصصي
أمين أسعد خير الله
ـ الطب العربي، بيروت ١٩٤٦ م

غوستاف لوبون
ـ حضارة العرب: نقله إلى العربية عادل زعيتر، مصر ١٩٥٦ م
التميمي المغربي (عبدالواحد بن علي)
ـ المعجب في أخبار المغرب ـ دولة الموحدين ـ دمشق: ١٩٧٨ م.
بروكلمن (كارل)
ـ تاريخ الأدب العربي ـ نقله: د. السيد يعقوب بكر، د. رمضان عبدالتواب مصر ١٩٧٥م.
ـ الآلات الجراحية عند العرب، نشر المجمع العلمي العراقي، في البحوث والمحاضرات. بغداد ١٣٨٦ هـ ـ ٦٦/م
البيقهي (إبراهيم بن محمد)
ـ المحاسن والمساوىء. مصر ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٦م.
البيروني (أبوالريحان محمد بن أحمد)
ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في الفعل ـ حيدر اباد ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.
البيهقي (ظهير الدين علي بن زيد)
ـ تاريخ حكماء الإسلام ـ دمشق ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.
البخاري (الإمام محمد بن إسماعيل)
ـ الأدب المفرد ـ استانبول ١٣٠٩هـ.
تيمور (محمد تيمور باشا)
ـ الموسوعة التيمورية ـ القاهرة ١٩٦١م.
التلمساني (محمد بن مرزوق)
ـ المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، الجزائر ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
الجاحظ (عمرو بن بحر)
ـ البيان والتبين ـ مصر.
جرجي زيدان
ـ تأريخ التمدن الإسلامي، مصر ١٩٢٠م.
الثعالبي (عبدالملك بن محمد)
ـ لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري، (بالاشتراك)، مصر.

حاجي خليفة (كاتب جلبي)
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الاستانة ١٩٤١ .
حسين مخلوف (مفتي الديار المصرية)
ـ فتاوي حسين مخلوف ـ القاهرة ١٣٩١هـ.
الحسيني (محمد بن علي)
ـ من ذيول العبر، الكويت.
حتي (فيليب)
ـ تاريخ العرب، مصر.
الخولي (محمد عبدالعزيز)
ـ الأدب النبوي، مصر ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.
الدوميلي
ـ العلم عند العرب، وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم النجار (بالاشتراك)، بيروت ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م.
الديوه جي (سعيد)
ـ بيت الحكمة، الموصل ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
ـ دور العلاج والرعاية في الإسلام، الموصل ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م.
ـ جوامع الموصل، بغداد، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣م.
ـ الموصل في العهد الأتابكي، بغداد ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م.
ـ الخدمات الاجتماعية لطلاب العلم في الإسلام، الموصل ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.
ـ التربية التعليم في الإسلام، الموصل ١٩٨٣م.
ـ الأمير خالد بن يزيد، دمشق ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.
الذهبي (محمد)
ـ الطب النبوي، مصر ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.
ـ من ذيول العبر، الكويت.
سبط بن الجوزي (يوسف بن قره أوغلي)
ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد.
السبكي(عبدالوهاب)
ـ معيد النعم ومبيد النقم، مصر ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

السيوطي (جلال الدين)
ـ الجامع الصغير، مصر.
ـ تنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك، مصر.
الشطي (أحمد شوكت)
ـ العرب والطب، دمشق ١٩٧٠م.
ـ مختصر في تاريخ الطب، دمشق ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩م.
الشربيني (محمد)
ـ مغني المحتاج، القاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٩م.
الشيزري (عبدالرحمن)
ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مصر ١٣٢٥هـ ـ ١٩٤٦م.
الطبري (محمد بن جرير)
ـ تاريخ الأمم والملوك ـ مصر.
طرازي (فيليب)
ـ خزائن الكتب العربية في الخافقين، بيروت.
محمد بن الحسن الشيباني
ـ الاكتساب في الرزق المستطاب، مصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.
محمد طاهر الكردي
ـ تاريخ الخط العربي وآدابه، مصر ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م.
محمد بن طلحة
ـ العقد الفريد للملك السعيد، مصر ١٩١٧م.
محمد بن محمد الأصفهاني
ـ تاريخ آل سلجوق (زبدة النصرة في نخبة العصرة) بريل ١٨٨٩م.
المغربي (عبدالقادر)
ـ الأخلاق والواجبات، مصر ١٣٤٤هـ.
المسعودي (علي)
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصر ١٣٤٦هـ.
ـ التنبيه والأشراف، مصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م.

المقريزي (أحمد)
ـ السلوك في معرفة دول الملوك، مصر ١٩٣٤م.
ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع، مصر ١٩٤١م.
ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة، الكويت ١٩٦٤م.
المقدسي (أحمد بن محمد)
ـ مختصر منهاج القاصدين، دمشق ١٣٨٩هـ.
محمد حميد الله الحيدر آبادي
ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، مصر ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.
محمد مصطفى عمارة
ـ جواهر البخاري، مصر ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م.
المقري المغربي (أحمد)
ـ نفح الطيب في أخبار غصن الأندلس الرطيب، طبع دار المأمون..
محمود قاسم (الدكتور)
ـ السلوك الطبي للأطباء العرب والمسلمين، مجلة المجمع العلمي العراقي، ٢ : ٣٤، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
ـ الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به. بغداد ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
النووي (محيي الدين بن شرف)
ـ تهذيب الأسماء واللغات، مصر.
اليعقوبي (أحمد)
ـ تاريخ اليعقوبي، النجف ١٣٥٨هـ.
ـ مشاكلة الناس لزمانهم، بيروت ١٩٦٢م.
ياقوت الحموي
ـ معجم البلدان، مصر ١٣٢٣هـ.
ـ معجم الأدباء، طبع دار المأمون.
يوسف مكارثي اليسوعي
ـ التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب الكندي، بغداد ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م.

اليونيني (قطب الدين موسى)
ـ ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد ١٣٧٤هـ.
صاعد الأندلسي
ـ طبقات الأمم.
الصابي (الهلال بن الحسن)
ـ تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، أو (الوزراء) ١٩٥٨ مصر.
عبدالله بن الحكم
ـ سيرة عمر بن عبدالعزيز، مصر ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م.
عبداللطيف البغدادي
ـ عبداللطيف البغدادي في مصر، نشره سلامه موسى، مصر.
العقباني التلمساني (محمد بن أحمد)
ـ تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، نشره المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٦٧م.
غوستاف لوبون
ـ حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٦م.
الغزالي (محمد بن محمد)
ـ إحياء علوم الدين، القاهرة.
(القفطي) (جمال الدين بن علي)
ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مصر ١٣٢٦هـ.
القليوبي (أحمد بن أحمد)
ـ حاشية القليوبي على المحلى، القاهرة.
الكرماني (محمد بن يوسف)
ـ شرح البخاري، مصر ١٣٥٦هـ، ١٩٣٧م.

